سمير عبده

السوريون والحضارة السريانية

- سمير عبده
- السوريون والحضارة السريانية

- الطبعة الأولى 1998
- تنضيد وإخراج وتنفيذ وتوزيع

دار الحصاد للنشر والتوزيع:

سوريا ـ دمشق ـ برامكة

هاتف وفاكس: 2126326

صندوق بريد : 4490


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

مقدمة

ليس هناك من مستند رسمي يستطيع أن يعطي رقماً حقيقياً لعدد العرب الأقحاح في سورية، أي الذين يعودون في انتمائهم العربي إلى قرون عديدة. ولكن هذا لايمنع من القول أن الكثيرين ممن وفدوا على هذه المنطقة منذ مئات السنين قد اندمجوا بها وصاروا عرباً بالإنتماء، بل هم الآن من غلاة القومية العربية، ولهم إسهاماتهم في بناء هذه القومية.

بيد أنه تضيع معالم من نستطيع أن نشير إليهم على أنهم من سكان هذه البلاد الأصليين، طالما أن الهجرة كانت قائمة من هنا وهناك إلى هذه المنطقة.

على أن هناك شعباً كان يسكن هذه المنطقة منذ القديم، وسميت هذه البلاد (سورية) على اسمه.. وهم السريان الأقرب إلى الأرومة العربية، بحيث أنه يندر أن نرى هذه المزاوجة بين شعبين ولغتين مع تاريخ مشترك لمنطقة واحدة كما هو حاصل بين السريان والعرب.

وليس في نية كاتب هذا الكتاب، المنتمي فكرياً إلى القومية العربية، التفريق في هذا الشأن، ذلك أن سورية العربية غدت قاعدة القومية العربية منذ عشرات السنين، كما أن المسيحيين فيها يفاخرون باسهاماتهم في هذا الأمر، منذ القرن الثامن عشر ومقاومتهم للاحتلال العثماني ودورهم الهام في استقلال هذه البلاد.

لقد ازداد وعي أهالي المنطقة بتاريخهم، وغدا الفرد السوري(*)، وخاصة إذا

(*) قصدنا تحديداً من سكن سورية الطبيعية، دون الحدود القائمة بينها حالياً.. فحضارة هذه المنطقة واحدة.

استقصينا أخبار نجاحاته في بلاد الاغتراب، ومن خلال الاحتكاك مع الآخرين، مدعاة فخر واعتزاز، مما يشير إلى أنه لم يأت من فراغ، بل أتى من حضارة ممتدة عبر ستة آلاف سنة، صقلته وعلمته في شؤون الحضارة والعلم.

ومع أن الحضارة العربية ـ الإسلامية أتت متأخرة بعض الشيء (١٥٠٠ سنة) فإن للحضارة السريانية الآرامية الممتدة عبر ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة، أعطت الكثير الكثير للحضارة العربية، مما يمكن الحديث عنه في هذا الكتاب.

وبقي من السريان الأقحاح، من يمكن أن نشير إليهم ونبينهم، ممن ينتسب إلى الطائفة السريانية الأرثوذكسية، مع عدد أقل للسريان الكاثوليك والأشوريين والكلدان، وأكثر للموارنة، ممن تجمعهم لغة واحدة في طقوسهم الدينية، مع اختلاف اللهجات أحياناً. ولكن محور دراسة هذا الكتاب عنت السريان الأوليين، وهم يشكلون الآن واحد في المئة من سكان الجمهورية العربية السورية.

ذلك أن السريان الأرثوذكس هم من أبقوا عبق حضارة البلاد الأصلية دون أن يشرعوا نوافذهم نحو الغرب أو الشرق. ولهذا فليس هناك من سرياني في العالم إلا وأصله من البلاد السورية، أينما كان مقيماً، عدا من يقطنون الهند وعددهم ثلاثة ملايين ونصف نسمة، فهؤلاء هنود وقد انضموا إلى الطائفة السريانية عبر مبشرين قدموا من سورية منذ زمن بعيد.

وبمعنى آخر، إذا كان هناك من امتداد تبشيري أو حضاري لهذه البلاد في بلدان أخرى، فإن سريان الهند هم هؤلاء، ويأتون في رأس القائمة، على عكس ماجرى عبر التاريخ الحديث، حيث انتمت الكثير من الطوائف أو الهيئات وغيرها.. إلى نوع من ثقافة الغرب أو بلدان أخرى، من تبعية دينية أو ثقافية أو نفوذ.

نعود إلى القول أن السريان يمثلون عصباً حساساً من تاريخ هذه البلاد لازال الكثير من الناس يطرقون لغتهم، سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين. كما أن هذه اللغة مطروقة بشكل كبير، يعادل الخمسين في المئة، على أسماء المدن والقرى فيها، كما نستطيع أن نبينها بشكل واضح من خلال اللهجة العامية المتداولة التي

تشكل ثلاثة أرباع اللغة السريانية، محرفة أحياناً بمخارج بسيطة لاتذكر، بفعل عامل الزمن، ولاعجب في ذلك.. (فاللغة العربية بنت الآرامية ـ السريانية)[1].

* * *

وهكذا، منذ نشأت الحضارة العربية، كانت هناك حضارة أخرى في المنطقة تعاونت معها، أخذت منها وأعطتها، حتى كادت أن تذوب الأخيرة بها، وهي الحضارة السريانية.

وقلما نرى في التاريخ حضارتين كانتا صنوان، كما هو الشأن في هاتين الحضارتين.

وإذا كان عامل الزمن قد أعطى الحديث عن الحضارة العربية في كافة أبعادها، ومنها البعد السياسي، فإن الحضارة السريانية انعدمت فيها هذه الخاصية، ولهذا بقيت آثارها بارزة في شؤون الفن والأدب وطقوس الدين واللغة وغير ذلك.

وحيث أن السريان موطنهم الأصلي هو سورية، خرجوا منها وعادوا إليها، فيما بقية الحضارات شعوبها خليط من أجناس وأقوام مختلفة، فإن السريان بميزاتهم الأساسية وهي كونهم من أمة واحدة، موطنها سورية الأصلية، أبقوا طابعهم المميز والفريد على مدى العصور والدهور، وهو أنهم الوعاء البشري لمن استوطن هذه البلاد ولازالوا يقيمون بها ولازالت طقوس حضارتهم تمارس وتتميز مبرزة الوجه التاريخي الأصلي لهوية هذه البلاد.

ومن الخطأ أن تجرنا أحادية النظرة الواحدة إلى التاريخ ونحن في زماننا الحاضر، في دراسة أصلنا، فهذه هي مصدر كل الخطايا والمغالطات في التاريخ.. والإنسان يسعى الآن لكي يفهم ولكي يفعل ليس في بيئته فحسب، وإنما في نفسه كذلك.

والإنسان الحديث يعي ذاته إلى درجة لم يسبق لها مثيل، وبالتالي يعي التاريخ، وهو يمضي النظر بحماس في الفجر الذي أتى منه، أملاً في أن تضيء اشعاعاته الخافتة الظلمة التي يتجه إليها. وبالعكس فإن مطامحه وقلقه بصدد الطريق المنبسط أمامه يشحذ نفاذه إلى ماسبق.

---

١ ـ حسن حده مجلة العربي ـ الكويت العدد ٤٦٠ مارس ١٩٩٧ ص١٢

إن الماضي والحاضر والمستقبل مترابطة معاً في السلسلة التاريخية المتكاملة.

ونحن لانستطيع أن نستنتج من التاريخ غير ماكان، لاماسيكون. فمع أنه لايدل أبداً على أن شعباً من الشعوب عاش انحلال حضارته ومولدها من جديد، فإننا نعلم أن هذا الذي لم يحدث بعد، لابد أن يحدث لنا، ولهذا لانستطيع الاكتفاء بالقول بأن المثل الأخلاقية المتعلقة التي تقوم عليها حضارتنا قد عفى عليها خلال التاريخ، وأن نعزي أنفسنا بالقول بأن هذا يتفق تماماً والمجرى المعتاد للطبيعة.. فإننا نحتاج أن نعرف لماذا جرى الأمر على هذا النحو حتى الآن، وأن نستخلص تفسيراً لا من قياس النظير على الطبيعة، بل من قوانين الحياة الروحية.

نحن نريد أن نقبض بأيدينا على مفتاح السر لنفتح به العصر الجديد.. ذلك العصر الذي يتجدد به البالي ولايبلى فيه ماهو روحي أو أخلاقي.

إن المنهجية التي وضعناها لكتابنا هذا (السوريون والحضارة السريانية) تجعلنا ندرس تاريخ هذه الحضارة على غير المنهج الذي اتبعه أسلافنا، وإلا ضعنا نهائياً. كما أن الأفكار التي تفيد هذه تجعلنا نتساءل لماذا لاتحتفظ بالقوة على الإقناع التي كانت لها من قبل، والتي تستحقها بفضل مضمونها؟ أو لماذا تفقد قدرتها على بيان طابعها الأخلاقي والعقلي؟ وحتى لماذا تتوقف الحقائق التقليدية عن أن تكون وقائع وتنتقل من لسان إلى لسان على أنها مجرد كلمات تقال؟

والأسئلة التي تطرح من هذا القبيل كثيرة، وقد تكون مستحيلة التحقيق، على أنه ليس ثمة ضرورة إلى اليأس، لأنه إذا كان العنصر الأخلاقي هو العنصر الجوهري في الحضارة، فإن الإنحلال يتحول إلى نهضة بمجرد أن يقود النشاط الأخلاقي إلى العمل من جديد في معتقداتنا، وفي الأفكار التي نحاول أن نطبع بها الواقع.

والقيام بهذه المحاولة أمر جدير بالسعي إليه، فهو إعادة بناء، كما اصطلح على تسميته.. ذلك أن الحضارة التي يحتاج إليها هذا العصر ليست جديدة أو غريبة عنه، بل كانت في مثل الإنسانية من قبل، ويمكن أن نعثر عليها في الكثير من الصيغ العتيقة. وليس علينا أساساً إلا أن نعيد إليها ماكان لها قديماً من احترام، وأن ننظر إليها نظرة جدية حينما نربط بينها وبين واقعنا الحالي.

وكل تفكير يتجاوز التاريخ الواقعي لابد وأن ينطلق من أيديولوجيا مناهضة

للواقع، أيديولوجيا تلف حولها الجموع لتقذفهم في قلب الممارسة ـ أي في مواجهة التاريخ الواقعي.

وحتى يتم تأسيس علاقة صحيحة بين البشر والتاريخ لابد من الإنطلاق أولاً من التاريخ، بوصفه إمكانيات، ومن أن إرادة البشر لاتصنع التاريخ إلا بوصفه هكذا، فلا يعدو دورها في التاريخ إلا نقل هذه الإمكانيات أو جزء منها إلى وقائع حية. أما النظر إلى إرادة البشر كقوة مطلقة قادرة على إنجاز مايحلو لها، فهذا ضرب من الأوتوبيا غير المفيدة، ووقوع في نزعة إرادية مسرفة في جهدها غير المنتج، أو في تضحيات مجانية غير مثمرة.

إن موضوع هذا الكتاب هو محاولة لفهم أعمق لدى الحضارة السريانية على السوريين الممتدة عبر ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة، وقد ساعدت خصوبة الأرض وتوافر المياه واستقرار الأحوال الجوية على بنيان هذه الحضارة وتهيئة عقل الفرد فيها للوصول إلى حقيقة الكون وأن خالقه واحد أحد.

وبذلك أصبح السوريون مهيؤون لاستقبال الأديان السماوية الثلاثة على أرضهم الطاهرة.

لقد ربط العالم النفسي (يونغ) بين العقل أو اللاشعور الجمعي والذي يحتفظ الإنسان فيه بموروثات عمرها آلاف السنين، ويؤثر هذا العقل الجمعي على سلوك الإنسان في حاضره كما يؤثر على رؤياه المستقبلية، وهو ماينطبق على الإنسان السوري، ذلك أن الفعل الجمعي يحتوي على أنماط أولية ثابتة حول مواضيع أساسية تحدد السلوك.. فهناك نمط أوحد للأم والابن والأسرة والوطن والرجولة والأنوثة وهكذا.

ولأن السوريين لديهم حضارة قديمة ونعموا بالاستقرار فإن لديهم عقلاً جمعياً ووجداناً مشتركاً يرتكز على قيم أصيلة تتسم بالسمو، مثل قيم الشرف والأمانة والإخلاص والوفاء والحب والتضحية... وكلها قيم أخلاقية أصيلة أجمعت عليها كافة الأديان.

وإذا كانت البلاد السورية قد تعاقبت عليها حضارات كثيرة كان آخرها الحضارة العربية، فإن التمازج الذي تم بين الحضارة السريانية والعربية يبقى هو بيت القصيد في أي دراسة توضع لهذه المنطقة. وبهذا المفهوم إذن كتب هذا الكتاب،

وهو من هنا موجه إلى المثقف العربي والقاريء العادي حتى يسمح له بتقدير الانجازات التي تمت في هذا المجال.

وهذه الدراسة تجيب على سؤال طال انتظاره: لماذا تراجعت الحضارة السريانية، أو لماذا ذابت مع حضارة أخرى كما يذهب البعض، وإلى أين بقيت آثارها، ومالسمة التي طبع بها شعب المنطقة.. إنها أسئلة كثيرة حاولنا عبر صفحات كتابنا هذا أن نجيب عليها.

وبما حوى هذا الكتاب، مع سابقه (السريان: قديماً وحديثاً) نكون قد أوفينا السريان بعض حقهم في تاريخهم المجيد، آملين أن نكون قد وفقنا في ذلك.

إنني سعيد بتحمل المسؤولية الكاملة عن أي خطأ وقعت به في الحكم والتقدير، وعن أي خلل يعتور التحليل الذي قمت به.

إن الدعم المادي والمعنوي الذي منحني إياه الأستاذ فؤاد نزها هو الذي أتاح لهذه الدراسة أن ترى النور، فبحث كهذا أخذ مني الشهور الطوال حتى أنجزته، وكان علي أن أترك كل مهامي حتى أتفرغ له، وبفضل هذا الدعم أثمر هذا الكتاب.

سمير عبده
ص.ب ٩١٤ ــ دمشق

تمهيد

لعل القارئ الكريم الذي سيطالع هذا الكتاب، قد عرف، وقد قرأ من التاريخ، مايكفيه لكي يفهم الأمثلة التي نضربها لشرح معظم المشكلات التي يعالجها كتابنا هذا. فالقارئ الحصيف مزود بالفطرة، بذاكرة تحتفظ بمحصول سنوات عديدة من التجربة، ومن خلال تلك التجربة لابد أن يكون قد قرأ وسمع الكثير عن السريان، سكان سورية الأصليون.

وإذا كانت الولايات المتحدة التي بلغت قمة التكنولوجيا في العالم قد اكتشفت نقصها في الحضارة، فلجأت إلى إقامت (المناسك) في شمال مانهاتن في نيويورك، إذ جاءوا بجدرانها وسقوفها وسائر أجزائها من مواضع مختلفة من أوروبا، وأقاموها على أرضهم ليكون لهم كما للبلدان الأخرى أثر قديم! وكذلك اشترى ثري أمريكي دير قديم من إسبانيا ونقله إلى فلوريدا بعد أن فكت أجزاؤه حجراً حجراً ونقلت وأعيد بناؤها، ثم جعلت متحفاً يدخل إليه الزائرون بأجر معلوم ليستعيد الثرى ماله وزيادة[1]. والسؤال هنا: هل يدل وجود هذين البناءين على أرض أمريكية على روح فنية في أمريكا؟ انهما أضيفا إليها من الخارج، ولم تنبع من نفوسهم الداخلية تعبيراً عن خوالجهم ومشاعرهم، وهكذا الفن والحضارة في أمريكا يشترى أكثر مما يكون جزءاً من الحياة. وفي كل هذه الأعمال يقصد إشغار المواطن الأمريكي أن في تلك البلاد حضارة ــ ولو أنها منقولة من بلد آخر ــ أما نحن فننعم بعبق حضارات التاريخ وقِدَم الإنسان في هذه البلاد، ومد عمق حضارته وثقافته.. فالأبجدية الأولى خرجت من هنا، والأوابد التاريخية تشهد

---

١ ــ ذكر الكثير من هذه الصور الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه: أيام في أمريكا، مكتبة الانجلو المصرية ــ القاهرة ص ٣٠٩ الطبعة الثانية.

على ذلك. إنسان هذه البلاد هو الذي دفع بالتقدم الذي شهده العالم عبر العصور والدهور إلى ماوصل إليه.. كل ذلك يقتضي منا تعميق الوعي التاريخي لديه. فليست أحداث يومنا إلا نتيجة لتراكمات حضارية عبرتها مئات وآلاف السنوات فكانت حافزاً للمؤرخ أن يتابعها.

إن المؤرخ الذي لا يملك مبادئ فلسفية أو أخلاقية لا يمكن أن يكون لديه أسساً يقيس بها التغير أو الاستمرار. وعلى ذلك، فليس في مقدوره أن يحكم على التطور أو الظهور أو السقوط أو النمو أو الوصف الجيد الذي هو جوهر التاريخ.

والمؤرخ، بدوره، في حاجة من أجل القيام بمهمة التفسير إلى معيار للمغزى، هو في الوقت نفسه معيار للموضوعية للتمييز بين ذي المغزى والعرضي، وهو بدوره لايمكن أن يجد هذا المعيار إلا بالاستناد إلى تناسبه مع الغاية المرجوة. وهو حين يضع حوادث تاريخية متماثلة، جنباً إلى جنب، يصبح بمقدوره أن يجد بينها حوادث متشابهة وأخرى متناقضة. وإذا نحى المتشابهة جانباً، فإنه يستطيع محاولة البت في الأمور التي تجعلها متشابهة. وإذا استخدم الفرض الأكبر، وهو أن النتائج المتشابهة تأتي من حوادث متشابهة، فربما يصبح في مقدوره أن يستنتج بأن الظروف المتشابهة في المستقبل، قد يتلوها نتائج متشابهة. وفي الدوائر، التي يمكن أن توصف بأنها أقل أكاديمية، يمكن أن تسمى مثل هذه الاستنتاجات.. دروس التاريخ.

إن إمكانية الحاضر في فهم الماضي أعمق مما تشير إليه هذه الأمثلة البديهية. فالحوادث المعاصرة لاتتحكم في تخميناتنا بالنسبة لما ينبع من أعمق نقاط التاريخ، فحسب، وإنما تؤثر كذلك في فهم حوادث ماضية ذات طبيعة مشابهة، كما يتضح من استخدامنا لأسلوب القياس التاريخي.

ومهمة المؤرخ شبيهة بمهمة المحقق الذي يستنطق الشهود ويجمع شهاداتهم ويدرسها ليتمكن من استجلاء ماحدث. وهي شبيهة بمهمة القاضي من حيث أنه يحاول، بمقارنة هذه الشهادات ومقابلتها وسماع أقوال جميع الفرقاء والموازنة بينها، استخراج الواقع قبل الحكم عليه. ولايستطيع المحقق أو القاضي أن يؤدي مهمته هذه على وجهها الصحيح، إذا لم يأخذ هذه الشهادات والروايات بالشك المتحفظ، وإذا لم يغربلها غربلة دقيقة، لفصل فاسدها عن صحيحها، ولكن

الأصول القضائية هي، مع هذا، أرحم من الأصول التأريخية. فمن أصول الأحكام القضائية براءة الذمة، وأن المتهم بريء إلى أن تثبت إدانته. أما في التاريخ فالاتهام أصل ومبدأ. فكل نص مشكوك فيه إلى أن تثبت صحته، وكل رواية مهمة إلى أن يقوم الدليل على براءتها(١).

والمصادر، سواء منها الأولية أو الثانوية، تهم المؤرخ بالقدر الذي تنطوي عليه من دقائق أساسية، أو على الأقل بقدر ماتوصل إليه من دقائق أساسية. فأهمية تلك التفاصيل إذن لاتنبع من كونها وردت في كتاب بعينه، أو في مقالة خاصة، أو تقرير ما، بل بقدر اعتمادنا على الذي يقص تلك التفاصيل، كأن يكون شاهد عيان لها.

إن التاريخ هو عملية صراع، تكون نتائجها، سواء أكانت حسنة أو سيئة، من صنع جماعات ما، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ وهي في الغالب، بصورة مباشرة ـ وعلى حساب جماعات أخرى، والخاسرون يدفعون الثمن. إن الألم أمر طبيعي في التاريخ، فلكل حقبة عظيمة من التاريخ مصائبها، وكذلك انتصاراتها. وتلك مسألة معقدة إلى حد بالغ، لأننا لانملك معيار أتيح لنا أن نقارن الفوائد الأعظم التي يجنيها البعض بتضحيات الآخرين.. ومع ذلك فلا بد من مثل هذه المقارنة(٢).

وإذا كان السؤال عن معنى التاريخ، فإن إجابتنا تعكس، عن وعي أو بدون وعي، موقفنا من الزمان وتشكل جزءاً من إجابتنا على السؤال الأكثر شمولاً حول الموقف الذي نتخذه من المجتمع الذي نعيش فيه. فالحقائق هي كالانطباعات الشعورية ترتطم بالمراقب من الخارج وهي مستقلة عن وعيه، فعملية الاستقبال هي عملية منفصلة وباستلامه للمعلومات، يتصرف المؤرخ وفقاً لها. فالتاريخ يتكون من مجموعة كاملة من الحقائق المؤكدة التي تكون متوفرة للمؤرخ من خلال الوثائق والنقوش وما إلى ذلك، ويقوم المؤرخ بجمعها ويصطحبها إلى منزله حيث يقوم بطهيها ومن ثم يقدمها بالأسلوب الذي يروق له، بشرط أن تكون الحقائق

---

١ ـ د. قسطنطين زريق: نحن والتاريخ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٣ ص٩٤ و٩٥ الطبعة الثانية.

2 - E. H. Carr: What is History. Pelican Book, London 1967, P 69.

صحيحة، حتى يتمكن من إقحام نفسه في خطر رمال التفسير والتأويل المتحركة، وهذه هي الحكمة المطلقة للمدرسة التجريبية والفطرية.

لعل القارئ قد يتساءل عن معنى هذه الدراسة في العنوان الذي اخترناه لها، وهل جاء الوقت للتحدث عن تاريخ بلاد، كانت بداية التاريخ بها، وعن شعب أسهم بشكل كبير ورائع في حضارة هذه البلاد بصمت وجلل، فكان حارساً على ماضيه التليد، مفاخراً بأصله وأصنوله، مغطياً الغير أمثولة في حب الوطن والتعبد بثقافته.

أجل لقد جاء هذا الوقت للتحدث عن حضارة السريان، وهم ممن أسهموا في الحضارة العربية بشكل كبير وموزون. ولايمكن للمرء أن يعيش الحاضر ويشيح بوجهه عن الماضي، ذلك أن استقرار السلامة تقتضي فهماً صحيحاً للأصول والأسباب الموروثة وحكماً صادقاً عليها، وإلى وعي نيّر لكيفية الإفادة مما تنطوي عليه من قوة وغنى والتغلب على مايشوبها من ضعف وفساد. فكلما ارتفع الإنسان في مراتب الإنسانية، أرتقت نظرته التاريخية وغزر فعله التاريخي، وكذلك كلما كان وعيه للماضي أصفى ومجابهته له أصدق وأعمق اغتنى كيانه الإنساني وغدا أقدر على الإنتاج. فالإنسان كائن حي فاعل، وبهذه الصفة لايتأثر بالواقع فحسب، بل يؤثر فيه، ولايكتفي بأن يكون نتيجة ومحصولاً بل يطمح إلى أن يغدو سبباً فاعلاً، لايقف عند التأثر بالتاريخ والخضوع له، بل ينشئ الحياة ويصنع التاريخ.

إن اهتمام الإنسان وقلقه وتطلعه إلى المستقبل، يدفعه إلى الإحساس بأنه في وسط مجرى الحياة المتدفقة، فهو مدفوع ودافع، وموجَّه وموجِّه، هو ابن التاريخ وأبو التاريخ في وقت واحد، وتاريخيته تتضمن هذين المعنيين معاً. ألا يقال أن التاريخ هو الحوار بين الحاضر والماضي، لأننا إزاء وجهتين تتحاوران بكل ماتعنيه كلمة التحاور من معنى، وهاتان الجهتان هما الحاضر والماضي.

ومن هنا يأتي القول بأن التاريخ هو تفاعل بين الحاضر والماضي، وكلمتا تحاور وتفاعل تعنيان أن التاريخ ينبغي أن يكتب بصورة مستمرة ومتواصلة وأن يكتب كل جيل تاريخه، ومن وجهة النظر التي يراها وبحسب المشكلات والمستجدات وعوامل التطوير والتحديث التي تطرأ عليه. ومن هنا يكون التاريخ

كله معاصراً، لأنه يصنع بصورة مستمرة، أو أنه في سيرورة متحركة، مرتبطة بالأجيال الحاضرة ونظرتها. فليس هناك تاريخ ثابت، وإنما هناك تاريخ متجدد. فما يكتبه أحدنا من تاريخ بحسب ظروفه الموضوعية المعنية، غير مايكتبه الابن، بحسب ظروفه هو[1].

كما أنه من الخطأ دراسة التاريخ بشكل مجرد، لأن ذلك يسلبه لبه ومحتواه، فالفرد منا يردد سنوات وأسماء وأحداث دون أن ينفذ إلى الحياة البشرية التي تنساب فيها. وكذلك ينظر بعض المؤرخين إلى الآثار والمخلفات الماضية.. يقرأون نقوشها، ويفكون رموزها، ويحللون لغتها، دون أن يلمسوا النشاط الإنساني الذي صدرت عنه. فوراء أي أثر أو نقش أو كتاب أو أية بقية مادية من بقايا الماضي.. إنسان، أو أناس، عاشوا وجهدوا، وأحبوا وكرهوا، وفرحوا وتألموا، واختبروا الحياة اختبارات قد تكون مماثلة لاختباراتنا الحاضرة أو مختلفة عنها، ولكنها على كل حال، اختبارات إنسانية هي، في النهاية، حصيلة الماضي وجوهره.

إن علاقة الإنسان ببيئته هي علاقة المؤرخ بموضوعه، والمؤرخ ليس الخادم لوقائعه المطاع ولاسيدها الطاغي، وعلاقته بوقائعه هي علاقة المساواة والأخذ والعطاء. وهذا العمل المتبادل يضم أيضاً التبادلية بين الحاضر والماضي، لأن المؤرخ ووقائع التاريخ هما ضروريان لبعضهما البعض. فالمؤرخ بلا وقائعه هو بلا جذور وعقيم، والوقائع بلا مؤرخ عديمة الحياة والمعنى.

وبعد.. فباستطاعتنا واستطاعتكم، إذا شئتم، أن تحيلوا التاريخ لاهوتاً إذا اعتبرتم أن معنى الماضي يتوقف على قوة مافوق تاريخية وفوق عقلانية. وباستطاعتكم إذا شئتم أن تحولوه إلى أدب ـ أي إلى مجموعة من القصص والأساطير الماضية التي تخلو من المعنى. ولكن التاريخ، بالمعنى السليم للكلمة، لايمكن أن يكتب سوى بواسطة أولئك الذين يجدون أن التاريخ وجهة ما ويقبلون بذلك.

إن الإيمان بأننا جئنا من مكان مايرتبط بصورة وثيقة بالإيمان بأننا ذاهبون إلى مكان ما..

---

١ ـ سمير عبده: صناعة تزييف التاريخ، دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٨٩ ص٨٩ .

إن المجتمع الذي فقد إيمانه بقدرته على التقدم في المستقبل سوف يتوقف بسرعة عن إشغال نفسه بتقدمه في الماضي.

إن التاريخ، هو، وإلى حد كبير، سجل مااستطاعت الشعوب إنجازه، وليس ماعجزت عنه.

والسريان، عبر تاريخهم الطويل من الانحطاط والسبات والعجز والنهضات المخفقة والهامشية في علاقة الأمم الأخرى بالإبداع العلمي والصناعي والأدبي والفني، بعد عصرهم الذهبي، لايمكنهم أن يستيقظوا دفعة واحدة بضربة معلم كما يقال. وواقع سريان اليوم هو ثمرة سيرورة طويلة لانهيار حضارة وصلت ذروتها ثم آلت إلى الزوال أو كادت تبعاً للويلات والفواجع التي عصفت بهم.



سورية مهد الحضارات

سورية مهد الحضارات، عميقة التاريخ، منها انبثقت الديانات السماوية، وهي، أي سورية (متى٤: ٢٤ ولوقا ٢:٢) اسم البلاد التي تمتد على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وإلى الداخل، وهي التي أطلق عليها العبرانيون اسم آرام. ويقول البعض أن اسم سورية هو اختصار لكلمة آشور، وقد جرى استعمال هذا الاسم المختصر بعد أن غزا الاسكندر الأكبر هذه البلاد.

وقد سكن الحثيون في هذه البلاد أولاً وغيرهم من نسل حام، وفي سنة ٢٧٥٠ ق.م بدأت العلاقة بين سورية وبابل حتى صارت تحت حكم نارام سن البابلي، وقد جعل الملك حمورابي اللغة البابلية لغة المراسلات الدبلوماسية.

وعلى مايدو أن موطن الساميين الأصلي كان الجزيرة العربية، ،انهم في الأصل من البدو، فالصحراء أفاضت في فترات من الدهر مازاد من سكانها نحو سهول العراق وسورية حيث كانوا يستقرون ويتكاثرون بسرعة، وقد تكون هجرتهم عنيفة في مرة من المرات فيستعبدون الحضريين[1].

وتقدر تواريخ الهجرات الكبرى منذ نهاية الألف الرابع إلى مصر، والألف الثالث إلى العراق، ونحو ٢٥٠٠ يظهر سرجون الأول ملك أكاد ويؤسس أسرة، ويصل من جهة الغرب إلى غابة الأرز.

أما الفرع السامي الذي يحل على شواطئ المتوسط في الحقبة عينها فهو الفوني الكنعاني في مدنه صور وصيدا وبيبلوس وأوغاريت.

وبعد أن تعود مدنية سومرية إلى الظهور في العراق، يرجع العنصر السامي

---

(١) الشيخ نسيب وهيبه الخازن: أوغاريت، دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦١ ص٣٣ .

إلى الحكم ممثلاً بأسرة أمورية، يلمع بين أعضائها شخص حمورابي الشهير بتشريعه، ويبسط الأموريون سلطتهم على آثور، بالقرب من الموصل، كما يمتد نفوذهم إلى قبادوقية.

ولقد كانت لغة الأموريين في بداوتهم فرعاً من السامية الغربية يَقترب من العربية، كما تشهد أسماؤهم، أما بعد تأقلمهم فإن لسانهم تبدل إلى اللسان الأكادي، أي السامي الشرقي.

وفي نهاية الألف الثاني يقيم الآراميون على حافة الصحارى ممالك صغيرة تشتهر منها مملكة دمشق.

وقد وقعت سورية تحت حكم مصر عندما فتحها تحتمس الأول عام ١٦٠٠ ق.م ثم تلاه تحتمس الثالث الذي سجل انتصاراته على حوائط معبد الكرنك بالأقصر، وظلت تحت حكم امنتحب الرابع وسيتي الأول، ولكن نفوذ مصر عليها تقلص حتى أعاده رعمسيس الثاني إلى ماكان عليه. وكانت سورية منقسمة بين ملوك كثيرين، مثل ملوك دمشق ورحوب وصوبة وجشور (املوك ١٠: ٢٩ و ٢ ملوك ٧: ٦) وقد فتح يشوع بعض نواحي لبنان وجبل الشيخ (يشوع ١١: ٢ ـ ١٨) كما استعمر داود دمشق وأخضعها له (٢ صموئيل ٨: ٣ ـ ١٣) وبقيت تحت حكم سليمان حتى استقلت قرب نهاية حكمه (١ ملوك ٤: ٢١ و ١١: ٢٣ ـ ٢٥). وقد كان ملوك دمشق أعداء للعبرانيين وكثيراً ماحاربوهم (١ ملوك ١٥: ١٨ ـ ٢٠ و ٢ ملوك ٦: ٨ ـ ٣٣).

والآراميون من عنصر الأموريين ولغتهم تصبح لغة الإمبراطورية الفارسية منذ الفتح الفارسي (٥٣٨ ق.م) وتحل محل اللغات السامية الأخرى إلى أن تنتشر الموجة الإسلامية وهي الموجة الكبرى والأخيرة من هجرات سكان جزيرة العرب، وتحل اللغة العربية بدورها محل الآرامية ـ السريانية.

ويعود ظهور العرب في التاريخ إلى القرن التاسع ق.م حيث تقلق غزواتهم اثور، ولكن إقامتهم بين الآراميين في داخل البلاد المشرقية وتكاثرهم في تلك الأصقاع لايبدأ إلا قبيل العهد المسيحي. وفي شرق الأردن يؤسس العرب من قبيلة النبط مملكة بترا. أما في اليمن وحضرموت فالحضارة العربية قديمة العهد، وقد وجدت في تلك الأصقاع نقوش من القرن الثامن ق.م، ثم قامت دولة سبأ

بعد الدولة المعينية، وعرف العرب الدولتين باسم (حِمْير). والحميريون أسسوا دولة اكسوم في أثيوبيا.

وحين حاول ملك سورية وملك بني إسرائيل أن يفتحا يهوذا، استعان أحاز بملك آشور، وبعد نهاية الحرب انضمت مملكة سورية إلى مملكة آشور، ثم صارت جزءاً من مملكة بابل، ثم جزءاً من مملكة فارس، ثم جزءاً من مملكة الإسكندر الأكبر وذلك عام ٣٣٣ ق.م، ثم وقعت في يد سلوقس الذي جعل أنطاكية عاصمة له، وقد خلفه أنطيوخس ايبفانيس الذي ظلم اليوم وقدم خنزيراً على مذبح هيكل أورشليم لتنجيسه.. ثم سقطت سورية تحت الحكم الروماني عام ٦٤ ق.م واستمرت أنطاكية عاصمة لها(١).

الآراميون

يجمع الرأي على أن الآراميين منبتهم المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية «أي جنوبي الصحراء السورية المعروفة ببادية الشام، وهي نفس المنطقة التي سميت في العهد الجديد بـ (العربية) وغربي الفرات الأوسط وشرقي فلسطين» ـ على ماتوفر من مصادر شحيحة في الغالب ـ وأهم مصدر يمكن الرجوع إليه في هذا الشأن هو العهد القديم، مع أن معظم ماورد فيه يدور حول مملكة آرام دمشق(*) وبعض الدويلات الآرامية الأخرى التي كانت تربطها بالعبرانيين علاقات سياسية واقتصادية، وإلى جانب العهد القديم هنالك كتابات ورُقُم مسمارية خلفها ملوك الآشوريين.

ويذهب البعض إلى أن حركة القبائل الآرامية بدأت في بلاد الشام، عند

---

١ ـ نخبة من الأساتذة: قاموس الكتاب المقدس، منشورات مكتبة المشعل ـ بيروت الطبعة السادسة ١٩٨١ ص٣٧

(*) دمشق بكسر الدال وفتح الميم وإسكان السين اسم هذه المدينة الجميلة، مدينة السحر والشعر، قالوا إن أصلها لفظة أرامية مماتة (مشق) تتقدمها دال النسبة، وأطلق الأراميون عليها اسم (درمسق) والسريان (درمسوق)
مجلة المشرق ـ بيروت مج٢ ص٦٥٩ .
عن محمد كرد علي: دمشق مدينة السحر والشعر سلسلة اقرأ ـ القاهرة رقم ١٦ نيسان ١٩٤٤ ص٥ .

منتصف الألف الثاني ق.م. وجاءت أول إشارة إلى وجودهم في بلاد الشام الجنوبية من ثبت أسماء الأمكنة الذي يعود إلى عهد الفرعون أمانوفس الثالث ١٤٠٣ ـ ١٣٦٤ق.م. حيث وردت عبارة: الشعب الآرامي أو الآراميون أو بلاد آرام. وفي عهد الفرعون مرنبتح ١٢٢٣ ـ ١٢٠٥ ق.م ذُكِر أنه كانت لهذا الفرعون مدينة في بلاد آرام، ولايستبعد أن يكون المقصود من بلاد آرام مملكة دمشق الآرامية لأن نفوذ الفرعون مرنبتح لم يتعد منطقة دمشق شمالاً، ولأن ملوك دمشق الآراميين كانوا قد لقبوا أنفسهم بلقب ملك آرام.

ولم يكن الآراميون في بادئ أمرهم سوى قبائل رحل تجوب مختلف المناطق سعياً وراء الكلأ وموارد الرزق، حتى إذا ماهب عليهم نسيم الحضارة، وقد جاءهم من وادي الرافدين، أخذوا يزحفون نحو الشمال فوصلوا بلاد الشام واحتلوها، فيما اتجه قسم آخر منهم نحو الشمال الشرقي، ثم تغلغلوا في أعماق سورية حتى وصلت بعض قبائلهم إلى أقصى الشمال، فاستقروا هناك وفي أعالي مابين النهرين، وأخذوا يعملون في الزراعة، في حين زحفت قلة منهم إلى مصر عن طريق صحراء سورية وسيناء، وعرفت هناك باسم (سوتو) أي الرحل، كما نزح قسم آخر من قبائلهم إلى بلاد أكد (جنوبي العراق) حيث أسسوا لهم دويلات صغيرة مبعثرة هنا وهناك، وصار لهم فيما بعد شأن يذكر في تاريخ تلك المنطقة. كما اتجه قسم آخر من قبائلهم نحو الشمال الشرقي. وقد جاء هذا التوسع الجغرافي نتيجة لفتوحاتهم والغزوات التي شنوها ضد الشعوب التي قطنت البلاد قبلهم كالأموريين، وهم قوم من سلالة كنعان بن حام بن نوح (تكوين ١٠:١٦) كانوا يتكلمون لغة سامية. والميتانيين وهم من العنصر الآري والحثيين، وفرضوا سيطرتهم عليهم وأسسوا دويلات صغيرة على أنقاض ممالكهم.

هذه الدويلات استطاعت أن تقف حاجزاً منيعاً أمام توسع نفوذ الآشوريين وتسربهم إلى البلاد المجاورة عبر بلادهم، ردحاً من الزمن، الأمر الذي حدا بالآشوريين إلى الإنتقام منهم والإغارة عليهم المرة تلو الأخرى، حتى تم لهم اخضاعهم بفضل جيوشهم المنظمة والمجهزة بأفضل المعدات الحربية أولاً، وبسبب انفصام عرى الوحدة بين الدويلات الآرامية ثانياً. إلا أن الآراميين لم يفتهم أن يتحالفوا أحياناً ضد الغزوات الآشورية، سواء أكان ذلك فيما بينهم أم مع جيرانهم كالحيثيين والعبرانيين والعمونيين وهم من سلالة بني لوط ابن أخي ابراهيم الخليل،

وهذا ماساعد على امتداد فترة تاريخهم السياسي بالرغم من الانقسام الذي ساد ممالكهم. وقد تمكن هؤلاء الآراميين المسيحيين بفضل ذكائهم وثقافتهم ورقة لغتهم وطلاوتها وسلالتها، أن يحتلوا مراكز مرموقة في الإمبراطورية الآشورية ويحصلوا على أرفع المناصب ويتدرجوا في مختلف الوظائف.. ذلك أن ملوك آشور إذ لمسوا فيهم الذكاء والخبرة والكفاءة قربوهم إليهم ليستفيدوا من مواهبهم، فاتخذوا منهم أمناء لأسرارهم وكتاباً في دواوينهم، وبخاصة في صفوف جيشهم[١].

وكان استقرار القبائل الآرامية في سهل الحولة والجولان وعلى ضفاف اليرموك وبينه وبين نهر الزرقاء، وفي حوران وجبلها، وفي البقاع وسلسلة جبال لبنان الشرقية، ومناطق القلمون ودمشق وغوطتها، وأسست ممالك وإمارات ومشيخات أبرزها:

ـ بيت رحوب التي امتدت ربوعها بين نهري الزرقاء في الجنوب واليرموك في الشمال.

ـ قبيلة طوب: وانتشرت منازلها إلى الشرق من بيت رحوب، وعلى الأرجح في المناطق المجاورة لمدينة الزرقاء الأردنية.

ـ قبيلة جيشور: في الحولة وعلى جانبي نهر الأردن والجولان.

ـ قبيلة معكة: على سفوح جبل الشيخ الجنوبية والغربية وفي البقاع الجنوبي.

ـ قبيلة صوبة: كانت أقوى قبائل الجنوب، وانتشرت في البقاع وسلسلة جبال لبنان الشرقية، وغوطة دمشق وحوران، وكانت لها السيادة على قبائل الجنوب.

وقد جاء في سفر صموئيل الأول ١٤:٤٧ أن ملوك صوبة قد دخلوا في نزاع مع صموئيل، وتدل عبارة (ملوك صوبة) أن هذه البلاد كانت منقسمة إلى ممالك عديدة، كانت أقواها مملكة صوبة التي دخلت في صراع مع داوود، وكان ملكها هدد عزر بن رحوب (صموئيل الثاني ٨:٣). يبدو أن هدد عزر هو من

---

١ ـ المطران غريغوريوس صليبا شمعون: الممالك الآرامية، دراسات سريانية ـ حلب ص ١١ و ١٢.

بيت رحوب وأن رحوب ليس بالضرورة هو والد هدد عزر، بل هو شيخ قبيلة بيت رحوب، التي ينتسب أفرادها إلى هذا البيت، فهدد عزر ظهر في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، أما رحوب فقد عاش قبل ذلك بعشرات السنين[1].

والواقع أن كتاب العهد الجديد قد اعتبر بيت رحوب وصوبة قبيلة واحدة هَبّتا معا لنصرة بني عمون على داوود، وناصرهم آراميو طوبة ومعكة، ونحن لانشك أن هدد عزر الذي كان الملك الأقوى في الجنوب في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، كان قد عمل على لم الآراميين وجمع شملهم حسب مانستنجه من إشارة وردت في حوليات الملك الآشوري شلمانوا شيرد (سلمانصر الثالث ٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م)، ففي معرض وصفه للأحداث التي وقعت في عهود أسلافه ذكر أن مدينة بيترو، على الضفة اليمنى لنهر الفرات، قرب مصب نهر الساحور، كانت قد سقطت في أيدي ملك آرام إبان عهد الملك الآشوري آشور ربي الثاني ١٠١٢ ـ ٩٧٢ ق.م. وبما أن هدد عزر قد عاش في هذه الحقبة، وهو الوحيد الذي لقب نفسه ملك آرام لانستبعد أن يكون هو المشار إليه في حوليات سلمانصر. وإذا صح ذلك لابد أنه وصل إلى هناك لتوحيد الآراميين وتخليصهم من السيطرة الآشورية. ومما يعزز وجهة نظرنا هذه إن برهدد الأول هذا قد أوعز بإقامة نصب للرب ملقرت عثر عليه في قرية البريج بجوار حلب. ولهذا النصب أهمية خاصة، فقد ورد بالنص المنقوش في النصب حتى صورة الرب جملة هدد عزر ملك آرام، ويتضح من هذه الجملة أن نفوذ برهدد قد وصل إلى هدد هناك. والواقع أن ملقرت هو رب المدن الساحلية صيدا وصور وهو على الأرجح اسم للرب هدد كاسم بعل، وقد يكون غرض برهدد من هذا تمتين أواصر الصداقة مع صيدا وصور[2].

وترجع أقدم الشواهد على الكتابة الآرامية في سورية وفلسطين إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، وقد كتبت هذه النصوص الأولى من اليمين إلى الشمال، إضافة إلى أنه تم فصل الكلمات عن بعضها بواسطة خطوط مستقيمة قصيرة. وقد تمكنت الآرامية في بلاد مابين النهرين من إزاحة الأكادية بدءاً من القرن الخامس

---

١ ـ د. علي أبو عساف: دمشق في العصر الآرامي، من كتاب دمشق أقدم مدينة في التاريخ ـ دمشق ١٩٩١ ص ٢٦ .

٢ ـ د. علي أبو عساف: دمشق في العصر الآرامي مرجع سابق، ص ٢٧.

قبل الميلاد، ولعبت في هذا الجانب سهولة الأبجدية الآرامية ومرونتها، دوراً هاماً وحاسماً، حيث أن استخدام الأحرف نصف الصوتية منح إمكانية تجسيد أحرف المد في المقاطع الصوتية للغة الآرامية.

الآراميون السريان

إلى القرون الأولى من العصر الميلادي كان الآراميون يشكلون فيما بينهم مجموعة بشرية ضخمة العدد ولكنها غير محددة السمات والملامح العرقية. فهي كتلة غير مستقرة كانت تشمل سكان سورية وفلسطين وبلاد مابين النهرين، الموزعة بين إمبراطوريتين سياسيتين كبيرتين في ذلك العهد: الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البارثية. ففي نطاق الإمبراطورية الرومانية أطلق على هذا الشعب اسم (السريان)، مع أنه في كل منطقة من المناطق التي كانت خاضعة لهذه الإمبراطورية كان يوجد عدد من الشعوب الأخرى... اليونان، الفرس، الرومان... الخ.

وفي أغلب المناطق، على الأقل في المدن، كان السكان مختلطين عرقياً ويتكلم أكثريتهم بلغتين، حيث أن ثقافات هذه الشعوب كانت متقاربة ومتداخلة إلى أبعد حد. وقد لعبت مسائل وعي الرابطة السياسية والثقافية دوراً كبيراً في العهود التاريخية القديمة وفي المراحل المبكرة من العصر الوسيط، أكثر من مسألة الوحدة اللغوية. ولهذا بالذات نجد أن السكان الإغريق الذين استقروا في القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، وبعدئذ في نطاق الإمبراطورية البيزنطية، أطلقوا على أنفسهم اسم (الروميين)، (الروم)، وكذلك أطلقت عليهم الشعوب المجاورة التسمية ذاتها[1].

وإذا نظرنا إلى الأمم من وجهة أخرى، رأينا أن الدين مهما كان سلطانه فهو لايستطيع أن يجابه الهيأة الاجتماعية مجابهة بشيء لم تألفه، ولااستعدت له. فإذا لم تكن الهيأة نفسها قد هيأت للدين أسبابه، ومهدت له طريقه، بقبولها مبادئه وتعاليمه، كان انتشاره غير مستطاع وبقاؤه غير مرجو.

قال (أوزيب Eusibe) وهو أول من كتب في تاريخ الكنيسة (لقد كان بين

١ ـ نينا بيغوليفساكيا: ثقافة السريان في القرون الوسطى ترجمة د. خلف الجراد دار الحصاد ـ دمشق ١٩٩٠ ص ٥٦ .

الإمبراطورية الرومانية والديانة النصرانية شيء من سبق التفاهم، بمعنى أن الفتح الروماني كان قد قضى على ماكان بين الجماعات من الفوارق، وأخضع الهيئات كلها لقانون واحد، ساوى بين الرفيع والوضيع، وجعل الرومان أمة واحدة لها قانون واحد، وإمبراطور واحد! فكانه مهد بهذه المساواة والوحدات، لقبول التعاليم المسيحية.. من حيث المساواة بين الناس، والوحدة الإلهية أيضاً، فلما جاء المسيح رأى طريقاً ممهداً صادفت فيه تعاليمه استعداداً في قلوب الناس، فجعلوا يدخلون فيه شيئاً فشيئاً)[1].

وقد انتشر السريان في سورية وشكلوا عماد المزارعين والحرفيين وأصبح لهم مكانة هامة في المدن والبلدات والريف، كما لم يكن دورهم الديني والثقافي يقل عن ذلك أبداً.

واستوطن العرب البلاد السورية منذ القرن الثاني الميلادي، فقد شدتهم إليها الأراضي السورية الخصبة، فأنشؤوا إمارات في حمص وتدمر والبترا، وفي لبنان وجنوبي الشام وفي أرض حوران. ولم يلبثوا طويلاً حتى تمثلوا لغة السوريين وحضارتهم وعبادتهم، فكانت أسماؤهم وأسماء آلهتهم هي في الغالب آرامية. وكانوا يستخدمون اللغة الآرامية في مراسلاتهم الدبلوماسية إضافة إلى لغتهم العربية. ولو شئنا تعداد الوثائق التي تعود للعصر الفارسي والتي تثبت انتشار الآرامية لضاق بنا المجال، وقد اقترح أن تدعى تلك اللغة (الإمبراطورية الآرامية)، وهذه التسمية تشير إلى الواقع التاريخي الذي استخدم أساساً لهذا الانتشار اللغوي العظيم.

وكان العرب يستخدمون الآرامية في مراسلاتهم الدبلوماسية، بالإضافة إلى لغتهم العربية، والأبنية الأثرية التي شيدوها في تدمر والبترا تعتبر من أجمل منتجات الفن السوري.

ولقد كان من ملوك الغساسنة المعروفين بانتمائهم المذهبي إلى السريانية الحارث بن جبلة أو الحارث الأكبر (٥٢٨ ـ ٥٦٩) وكانت تؤازره من القسطنطينية القيصرة تيودورة. وحينما ذهب الحارث إلى القسطنطينية سنة ٥٦٣ لمقابلة الإمبراطور، اغتنم فرصة وجوده في العاصمة لكي يلتمس مطراناً لمنطقته.

---

١ ـ عارف النكدي: الموجز في الاجتماع مكتبة الهلال ـ دمشق ١٩٢٥ ص ٥٧.

ونال وعداً بأن يقوم تيودوسيوس بطريرك الاسكندرية الذي كان في إقامة جبرية في العاصمة البيزنطية، برسامة مطرانيين هما يعقوب البرادعي(*) وتيودورس العربي. وقد حصل يعقوب البرادعي على الرها كمركز اسقفي، مع سلطة واسعة على سورية والديار العربية. أما سلطة تيودورس فكانت تمتد إلى الديار الغربية وفلسطين، ومركزها في الحيرة من حيث المبدأ، إلا أنه كان في الواقع اسقفاً متجولاً. وكان لهذين الاسقفين تأثير كبير، ولاسيما نشاط يعقوب الذي أصبح العامل الأكبر في نشر السريانية ودعمها والدفاع عنها.

وكانت مدينة الحيرة عاصمة مملكة اللخميين، وكان العنصر العربي سائداً فيها نظراً لموقعها الجغرافي القريب من بادية الشام، وانتشرت فيها الديانة المسيحية السريانية حتى عرف عن أسماء عائلات هذه المدينة تسميتهم بكلمة (عبد) مثل عبد يشوع، عبد المسيح، عبد الله.

وأشهر ملوك الحيرة هو النعمان الأول (٤٠٣ ـ ٤٣١) الذي أتاح لسمعان العمودي السرياني أن يبشر بالمسيحية في بلاده مع أنه بقي وثنياً. وقد أصبح عمرو بن هند مسيحياً سريانياً بعد أن جلس على الحكم.

وأصبحت الحيرة، منذ القرن الخامس، مركزاً دينياً هاماً، بالإضافة إلى كونها مركزاً مرموقاً للتجارة والثقافة المسيحية وقطباً جذاباً للبدو العائشين في البلاد العربية ماقبل الإسلام. ومن هذه المدينة انطلقت إرساليات مسيحية على الطرق التجارية نحو البحرين وعمان وغيرهما من البلدان الواقعة على الخليج العربي.

وكانت اللغة المستعملة في الحيرة، السريانية للطقوس وللأنباط منهم الذي يتكلمونها في بيوتهم، واللغة العربية التي يتداولونها عامة.

وقيل أن المرقش استعان بالحروف السريانية التي كان مسيحيو الأنبار والحيرة يستعملونها، ثم حورها فأصبحت الحروف العربية. ومن الأكيد أن (العباد) كانوا أول العرب في استعمال الخط العربي(١).

(*) تسمية اليعاقبة للسريان الأرثوذكس أطلقها خصوم القديس يعقوب البرادعي (٥٤٣ ـ ٥٧٨) اليونانيون عليه، حتى يسموهم أنفسهم أرثوذكس، وليس أصلها نابع من جدل تعليمي وإنما من نتيجة خلاف بين أشخاص.

(١) ـ الأب جورج شحاته قنواتي: المسيحية والحضارة العربية ـ بغداد ١٩٨٤ ص ٥٥ .

ويبدو أن المسيحسة كانت عشية مجيء الإسلام، تتدفق نحو الجزيرة العربية من جميع الجهات، فكانت تتقدم انطلاقاً من سورية ومابين النهرين نحو نجد وضفاف الخليج العربي، ومن اليمن ونجران كانت تشع من خلال المحيط الهندي وتتهيأ للدخول إلى آسيا الجنوبية وإلى أفريقيا السوداء[١].

السريان والعرب المسلمون

حين أتى الإسلام على منطقة الجزيرة العربية كانت هذه في حالة تفكك ديني وسياسي واجتماعي لعدة اعتبارات، على رأسها عدم التجانس الجغرافي والمعيشي، مع وجود الحضر والبدو والرحل، وانقسام القبائل العربية الكبرى إلى مجموعتين متنافستين تنتسبان إلى إبراهيم الخليل. وقد عاشت الجزيرة العربية بمعزل عن الأحداث الخارجية، هذا على الأقل في جزئيها الأوسط والشمالي، حيث لم تخضع مطلقاً للسيطرة الأجنبية.

وقد كانت هناك ثلاث إمبراطوريات تتقاسم الشرق الكلاسيكي: بيزنطية في الغرب وفارس في الشرق والحبشة في الجنوب، حيث الأولى والأخيرة تشتركان بالديانة المسيحية، أما الفارسية فقد كانت تسيطر عليها الزرادشتية وهي ديانة الدولة الرسمية، ولو أن المسيحية كانت قد انتشرت فيها انتشاراً واسعاً، خاصة السريانية الشرقية. وكثيراً ماكانت الإصطدامات تقع بين الإمبراطورية البيزنطية والفارسية لأن حدود نفوذهما كانت متداخلة.

وكان سكان الجزيرة العربية، خليطاً من الوثنية الشرقية القديمة المرتكزة على عبادة الشمس والقمر والكواكب ومن ثم الحجر الأسود ومن المسيحية وعلى رأسها السريانية، حيث كانت هناك ست أبرشيات على الساحل الشرقي من الجزيرة العربية وفي عمان وجزيرة سقطرة، كما كان الأمر نفسه في اليمن وفي الحجاز ونجد حيث كانت تحكم قبيلة كندة المسيحية التي أنجبت امرؤ القيس، كما كانت قبيلة طي المسيحية تسكن تيماء التي كان فيها حصن الأبلق الشهير. كما كان للمسيحيين في مكة وجودهم الكبير بين الطبقة الأرستقراطية

---

(١) ـ الأب البيرابونا: تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، الجزء الثاني، دار المشرق ـ بيروت الطبعة الأولى ص ١٥

وأصحاب المهن المتواضعة، منهم ورقة بن نوفل ابن أسد وهو ابن عم خديجة زوجة الرسول محمد الأولى، وكانت لغتهم العربية والسريانية وبعض الحبشية.

في هذه المنطقة نزل الوحي الإلهي على الرسول محمد وانبثق الإسلام ليصبح بعد مضي بعض الوقت ديناً عالمياً. فقد انتشر من هذه المنطقة إلى بقية الأقطار العربية ثم إلى الشمال.. إلى تركيا وإلى بلاد فارس ومابعدها من بلدان.

وكان المسيحيون في هذه الأثناء في أشد خلافاتهم وتناحرهم، حتى أن هذه الخلافات قسمت الكنيسة المسيحية إلى قسمين: أرثوذكسي وكاثوليكي، ولكل من هذين كنائس وأبرشيات لها نظامها وصلواتها وعقائدها.

وفي هذا الجو وجد السريان في الرسالة المحمدية منقذاً لهم مما كان يطبخ ضد كنيستهم، فهم سكان البلاد الأصليون، ولهذا وضعوا علمهم ومهارتهم تحت إمرة الخلفاء الذين سادوا على هذه المنطقة.. الأمويون أولاً ومن ثم العباسيون، إلى أن تفسخت الخلافة بدخول الأغراب لها وضعف العنصر العربي فيها فكان مصيرهم كمصير العرب، فحين وصل العرب المسلمون إلى القوة صاروا هم أقوياء وضعفوا حين ضعف هؤلاء.. إنهم أبناء منطقة واحدة.

وحين صار الحكم للخلفاء الأمويين آزر السريان هؤلاء، لأن الود والاحترام كان سائداً بينهم، فمعاوية (٦٦١ ـ ٦٨٠) وطد حكمه بمساعدة النصارى، خاصة السريان، حيث كانت له زوجة منهم وهي ميسون أم يزيد بن معاوية، ومروان الأول (٦٨٣ ـ ٦٨٥) اعتمد في حروبه على النسريان، من قبيلة كلب. ومنصور ابن سرجون (سرجيوس) الذي كان سريانياً هو من فتح الباب الشرقي في دمشق للأمويين وابنه أصبح وزير المال وحفيد الأول أصبح بيزنطياً وهو يوحنا الدمشقي. كما كان طبيب الخليفة معاوية سريانياً وقد ولاه أميره على خراج حمص[1].

وفي حالات قليلة استثنائية، مثل حالة الوليد الأول (٧٠٥ ـ ٧١٥) حيث أمر بقتل زعيم بني تغلب، القبيلة العربية المسيحية لأنه أبى أن يعتنق الإسلام[2] فإن وضع المسيحيين كان معقولاً إجمالاً.

---

(١) احمد بن ابي يعقوب اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، الجزء الثاني، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠ ص ٢٢٣

(٢) ابو انفرج الاصفهاني: الاغاني ٣٢ ج ، الجزء العاشر، بيروت ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ ص ٩٩

ولمعرفة واقع المسيحيين، والسريان أكثرهم، في عهد العباسيين، فقد كان لهم العدد الكبير من العلماء والمثقفين مع خبرة إدارية وهذا ماجعلهم يصلون إلى بلاط العباسيين، حيث بلغ عددهم ٣٦٣ عالماً منهم ٢١٥ طبيباً، ٦٣ ناقلاً ٤٠ فيلسوفاً ومنطقياً، ١٥ فلكياً، ١٠ رياضيين، ٧ منجمين، ٥ كيميائيين، ٤ صيدلانيين، ١ جغرافي، ١ نسابة، ١ حجام، ١ اصطرلابي[١].

لقد كانت الحظوة كبرى للشعراء والأدباء لدى الخلفاء والأمراء، بقطع النظر عن أديانهم ومذاهبهم. وكلنا يعلم مكانة الأخطل في العهد الأموي، وقد كان يدخل على عبد الملك دون إذن وهو مرتد عباءة من الحرير وعليه تعويذة، وقد تدلى من عنقه صليب ذهبي مشدود إلى سلسلة ذهبية والخمرة تقطر من لحيته! وهو الذي هجا الأنصار في قصيدة طويلة يقول فيها: (واللؤم تحت عمائم الأنصار) فتألم الأنصار لذلك وأرسلوا كبيرهم النعمان بن بشير صاحب رسول الله (ص) فدخل على عبد الملك ورفع عمامته وقال أترى هنا لؤماً يا أمير المؤمنين؟ فطيب الخليفة خاطره دون أن يتعرض للأخطل بسوء![٢].

ومن مظاهر التسامح الديني أن الوظائف كانت تعطى للمستحق الكفء، بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه، وبذلك كان الأطباء المسيحيون (وجلهم من السريان) في العهدين الأموي والعباسي محل الرعاية لدى الخلفاء، وكان لهم الإشراف على مدارس الطب في بغداد ودمشق زمناً طويلاً. كان ابن أثال الطبيب النصراني طبيب معاوية الخاص، وكان (سرجون) كاتبه. وقد عين مروان (اثناسيوس) مع آخر اسمه اسحاق في بعض مناصب الحكومة في مصر، ثم بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الدولة، وكان عظيم الثراء واسع الجاه، حتى ملك أربعة آلاف عبد وكثيراً من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة، وقد شيّد كنيسة في الرها من إيجار أربعمئة حانوت كان يملكها فيها، وبلغ من شهرته أن وكل إليه عبد الملك بن مروان تعليم أخيه الصغير عبد العزيز الذي أصبح والياً على مصر فيما بعد وهو والد عمر بن عبد العزيز[٣].

---

(١) لويس شيجو: علماء النصرانية في الاسلام، جونيه ـ لبنان ١٩٨٣ ص ٢١.
(٢) د. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، دار السلام، دمشق، بدون تاريخ النشر، ص ٨٧
(٣) د. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ٨٦

ومن أشهر الأطباء الذين كانت لهم الحظوة عند الخلفاء جرجيس بن بختيشوع، وكان مقرباً من الخليفة المنصور واسع الحظوة عنده، يحرص على راحته وسروره، حتى كان لجرجيس زوجة عجوز، فأرسل إليه المنصور ثلاث جوار حسان فرفض قبولهن قائلاً: إن ديني لايسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي مادامت في الحياة، فسر منه المنصور وازداد له إكراماً. ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة (أي دار الضيافة)، وخرج إليه ماشياً يسأل عن حاله، فاستأذنه الطبيب في رجوعه إلى بلده ليدفن مع آبائه، فعرض عليه المنصور أن يسلم ليدخل الجنة فأبى وقال: رضيت أن أكون مع آبائي في جنتهم أو نارهم فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار.

وكان سلمويه بن نبان النصراني طبيب المعتصم، ولما مات جذع عليه المعتصم جذعاً شديداً وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة ديانته!

كما كان بختيشوع بن جبرائيل طبيب المتوكل وصاحب الحظوة لديه، حتى أنه كان يضاهي الخليفة في اللباس وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة[١].

ونرى مما ذكرناه، وهو غيض من فيض، مدى تعاون ومحبة وود السريان مع العرب والمسلمين، مما رفع من مكانة الحضارة العربية التي استمرت إلى القرن الثاني عشر تقريباً. وإذا كان دور السريان في هذه الحضارة قد تجلى أكثر ماتجلى في الترجمة، عدا عن ممارستهم للعلم، فهذا الأمر يشبه وضع الغرب مابين القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، حيث تجاوزت جهود المترجمين ونشاطاتهم عمل الفلاسفة واللاهوتيين وعلماء الكلام. «والحقيقة أنه لابد من الإشارة إلى الطابع الاصطفائي (الانتقائي) للترجمات آنذاك. فمن بين أكثر من مئة مصنف مهم، ترجمت في ذلك العصر من العربية إلى اللاتينية، فإن الأكثرية المطلقة شملت مؤلفات علمية وفلسفية وضعها مؤلفون قدماء أو مسلمون»[٢]. وبتدهور الحضارة العربية، نظراً للغزوات والاستعمار الذي عم المنطقة، ضعف السريان والعرب إلى بدايات القرن العشرين حين بدأت بلادهم في الاستقلال.

---

(١) د. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، مرجع سابق، ص ٨٦ و ٨٧

(2) N. Reseher: The Impact of Arabic Philosophy on the West Studies in Arabic Philosophy. Academic library, London 1960 p45.

رموز حضارية من سورية

رأينا مما سبق أن الحضارات التي مرت على سورية كثيرة وقد انتهت بالحضارة العربية، ولكل حضارة رجالها وشعوبها، على أني سأذكر اثنين خرجا من هذه المنطقة، ولابس خروجهما ووظيفتهما الكثير من اللغط والشهرة.

أولهما مايخص طاليس، فقد كتب ديوجنس المؤرخ الذي أرخ لهذا الحكيم طاليس مع غيره من الفلاسفة يقول أن هذا من فينيقية، من عائلة تدعى (قدما) وهاجر (قدما) من صور ورحل قبله أجداده من الشام إلى صور، وذهب عميد أسرتهم (قدما) إلى بلاد اليونان وهناك علمهم الكتابة بالحروف الفينيقية[١]. وكان (الفينيقيون) أول من استنبط الحروف الهجائية، وعلموها للناس والشعوب قاطبة[٢] والفينيقيون أمة آرامية سكنت السواحل اللبنانية[٣] وتكلمت اللغة الآرامية (السريانية) التي كانت لغة صور وصيدا وجبيل وبيروت[٤]، ولاننسى المرأة التي ورد اسمها في الإنجيل باسم المرأة الفينيقية[٥] فقد ورد اسمها في بعض نسخ الكتاب المقدس: المرأة السريانية أو المرأة الشامية.

وثاني الأسماء التي دخلت التاريخ واصلها من سورية هي تيودورة. القيصرة السورية، فهذه المرأة شوهت صورتها عبر التاريخ، وهي المواطنة السورية التي أصبحت قيصرة في القسطنطينية زوجة يوسطنيان البيزنطي.

ومن أراد من المؤرخين الغربيين أن ينال من سورية اخترع لها تاريخاً، فهناك من حسبها ابنة حارس الدببة في الملعب الروماني في العاصمة البيزنطية، وآخرون قالوا إنها كانت راقصة في الإسكندرية.

أما الواقع، وكما تؤكدها الوثائق والكتابات السريانية، فترجع ولادتها إلى

---

(١) مجلة المقتطف عدد سنة ١٨٩٤ ، ج ٤ في ترجمة هيرودوتس ابي التاريخ.
(٢) مقدمة قاموس اودو بالسريانية ١٨٩٧
(٣) فيليب طرازي: عصر السريان الذهبي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٤٦ ، ص ٦١
(٤) المطران يوسف داود: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية، طبع في دير الآباء الدومينيكيين سنة ١٨٩٨ ص ٩٩
(٥) انجيل مرقص ٧ : ٢٦

مدينة منبج، الواقعة بين حلب والرها، في مطلع القرن السادس. ووالدها قسيس سرياني أرثوذكسي، رباها تربية صالحة، وتزوجها القيصر يوسطنيان حين مر في هذه المدينة وهو في طريقه إلى محاربة الفرس. وأصبحت قيصرة لبيزنطية إلى جانب زوجها القيصر يوسطنيان وذلك من سنة ٥٢٧ - ٥٤٨م.

وقد عاشت حياة مسيحية لائقة بمقامها الرفيع بعد زواجها من الإمبراطور. وسرعان مااكتسبت نفوذاً كبيراً على الإمبراطور ولعبت دوراً هاماً في شؤون الدولة كلها، لاسيما الدينية منها.

وكانت تفتخر بسوريتها وسريانيتها حيث عملت فعلاً كل مافي وسعها لمساعدة بني وطنها ومذهبها ولدفع الملك إلى حمايتهم وتمتين أواصر الصداقة معهم.

ولما كان الملك غيوراً على الديانة المسيحية، فقد أصدر مراسيم وأوامر تقضي بوجوب رجوع كل الوثنيين إلى الديانة المسيحية. ولتحقيق هذه الغاية، نظمت إرساليات مكونة غالبيتها من رهبان سريان كانت تيودورة تحتفظ بهم تحت حمايتها، فكان أن أفلحوا بعد سنوات قلائل، في القضاء على آخر وثني في آسيا الصغرى.

وقد قلنا في البداية أن صورة القيصرة تيودورة قد شوهت، كما هو الشأن حين تقوم الحقائق التاريخية على نكتة واقعية، أو كما هو الحال في مقالة (هـ.ل. منكن) عن (تاريخ) حوض الاستحمام، والتي كثيراً مايشار إليها في الأبحاث، أو رسالة (الكسندر وولكوت) الساخرة عن إعارة زوج دوروتي باركر - التي لم يرسل أصلها إلى السيدة المفروض أنها مرسلة إليها البتة، على الرغم من أنه قد أرسل نسخة إلى السيدة المشار إليها[1]. أو كما كان يحدث في الأيام التي يتوقع فيها أن يفتح الجواسيس الخطابات المرسلة بالبريد، أن يحاول كاتبو الخطابات أن يزوهم في الذكاء بأن يلفتوا نظرهم، أو حب استطلاعهم، لمصلحة الشخص المتجسس عليه لا إلى الجاسوس أو إلى مستخدمه[2].

---

(1) - C. D: Macdougal: Hoaxes. Hasting House, New York 1992 p.302-3

(٢) Louis Gottschalk: T Lafayette between the American and the French Revolution. Panthen Book, New York 1956 P. 302-3

لقد قلبت سيرة هذه الإمبراطورة إلى السوء بفضل المؤرخ (بروكوبيوس) لأسباب مذهبية، بعد أن كان قد أطراها هي وزوجها إطراء عاطراً. وقد ادعى هذا المؤرخ في مجموعته التاريخية المسماة (انيكودتا) السوء لهذه القيصرة حين التحدث عنها، فيما دائرة المعارف البريطانية وهي تقدم نبذة عن سيرتها قالت أن ادعاءات هذا المؤرخ مطعون بها. ومن المفروغ منه بطلان الصورة المشوهة التي رسمها.

وقد أنصفها المؤرخ الفرنسي أنطون ديبو في كتاب له صدر عام ١٨٨٥ ، فيما ألف عنها كتابات خيالية بطريقة قصصية، أهمها ماكتبه سير هنري يوتنجرس والكاتب م.سوندون.

والشيء الذي يذكر هنا عن سيرة هذه القيصرة هو أنها لم تبتعد عن (سوريتها) وبقيت رسولاً لها في بلاط البيزنطيين، وهو ماشجع غلاتهم على الطعن بسوء سلوكها من خلال مخيلتهم المريضة.

إن النموذجين اللذين قدمناهما هما لأناس عاشوا خارج سورية وبقي اسمهم مقروناً باسم بلدهم الأصلي.. سورية.

مدخل إلى دراسة الحضارة السريانية

من ينظر إلى التاريخ يرى شعوباً كثيرة استطاعت أن تعيش عالة لمدة زمنية على شعوب غيرها بفعل مركز تجاري أو بفعل صفة اجتماعية، أو بفعل ثراء جغرافي طبيعي معزول عن ثراء الإبداع الإنساني. ولكن ذلك لم يعن قط أن هذه الشعوب في مظاهر ازدهار اقتصادها كانت ذات حضارة أصيلة، لها جذور إنسانية يتكامل معها الاقتصاد، ولاتكون هي تابعة له، خاضعة لترواحاته، بل على العكس من هذا نجد الأدلة تشير إلى أنه عندما كان يعم الثراء المجتمع المتحضر وتسود فيه الرفاهية، تنتكس فيه الحضارة ويقف التقدم الاجتماعي، فيتحول دافع الخلق والإبداع إلى دافع إصرار على التقاليد الجامدة. تتفرد المطامح الفردية بالانتهازية والسرقة وينكفئ قادة المجتمع على ذواتهم لجمع الثروات والزهو بالمقتنيات.. من أثاث ورياش ومظاهر براقة. فنرى أن الدافع الذي حدا بأفراد المجتمع إلى البناء والحصول على أعلى قدرة ممكنة بسير الحياة يقف وينتهي عند الوصول ثملاً، حذراً، لايعي ذاته للتجاوز والاستمرار بالمسير، بل يبدأ بالتآكل والالتفات إلى أمجاد الوراء والتسكع في جوانب لايجدي الالتفات إليها نفعاً.

هكذا وعى السريان السوريون حضارتهم، ومع أن اقتصادهم لم يكن ليقاس بمدخول مدينة واحدة من المدن البيزنطية أو الفارسية، فإنهم كانوا يملكون نفساً متحفزة ودافعاً حضارياً يسود أفرادهم، مما جعلهم يندفعون بثقة عليا فيفرضون سيطرتهم وأخلاقيتهم على أرقى الشعوب في مظاهر المدنية آنذاك.

وكان السريان السوريون قبل انطلاقهم، يفخرون بجوعهم مع النبل والكرامة، يزاحمون لاكرام الغير والتضحية في سبيله. وكان الفرد على استعداد للتخلي عن كل ثروات العالم لأجل نصرة إيمانه وعصبيته. وهكذا تجسدت نزعة

الحضارة، وبدأت بالصعود وتحقيق ذاتها في إنجازات إنشائية وأخلاقية سادت على المجتمعات المجاورة.

أما نضالهم من أجل الكرامة والمجد والصراع فلم تكن من أجل أهداف محدودة مادية ولامن أجل الغنائم والمراكز، بل من أجل عقيدة عليا في المجتمع المتجذر في الحضارة، من أجل هدفية محدودة عقائدية يقبل المواطنون في سبيلها الجوع والتعذيب والتشريد، ويضحون بكل مايملكون في سبيل الوصول إليها.

وقد وضع السرياني السوري أهدافاً تخلد على الموت ويحس الفرد أمامها بأنه يبقى خالداً معها، وإن مات لأجلها. فالمرء يستطيع أن يموت في قتال لحبه لأهدافه ونفسه، يمكنه أن يهرب مما يخيفه، ويحتمي بالآخرين مما يرعبه، ولكن المأساة العظمى للإنسان هي أن يكون المهدد له نفسه وحسه، فهو عندئذ لايلقى من يلتجئ إليه. فليس ضائعاً ذلك الذي يضل طريقه فيفترسه التعب وهو يبحث عن معالمها، بل الضائع هو الذي لاطريق له يضيعها، ولامعالم طريق يحرص أن يصلها.

* * *

تتعدد التسميات التي أعطيت لكلمة الحضارة civilization ، ولكن يجمع القول على أنها تعني الحالة الناتجة عن انجازات رائعة يحققها مجتمع من المجتمعات، فتكون رديفة للتحضر. فالأعمال المبتكرة والفنية والعقلية والمادية لاتكشف عن آثارها الكاملة الحقيقية إلا إذا استندت الحضارة في بقائها ونمائها إلى استعداد نفسي يكون أخلاقياً حقاً. ذلك أن الإنسان لن تكون له قيمة حقيقية بوصفه شخصية إنسانية إلا من خلال كفاحه ليكون ذا خلق وخلال حسنة. وتحت تأثير المعتقدات الأخلاقية وحدها تكونت مختلف العلاقات في المجتمع البشري على نحو يسمح للأفراد والشعوب أن تنمو وتتطور بطريقة مثالية.

كما تعني الحضارة مجموعة إنجازات معينة ظهرت خلال التاريخ في مجتمع واحد أو مجتمعات متصلة. ولاتستعمل اللفظة بالمعنى الأول بصيغة المفرد، فيقال مثلاً إن الحضارة تتطلب قدراً معيناً من السيطرة على الطبيعة أو مستوى لائقاً من العيش. أما بالمعنى الثاني فتستعمل بصيغة المفرد أو الجمع، فيقال مثلاً الحضارة السريانية أو الحضارات البشرية، أو الحضارة البشرية بالشكل الشامل.

إن الحضارة، بكل بساطة، معناها بذل المجهود، بوصفنا كائنات إنسانية، من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم، من أي نوع كان، في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي. وهذا الموقف العقلي يتضمن استعداداً مزدوجاً حيث يجب أن نكون متأهبين للعمل إيجابياً في العالم والحياة، ويجب ثانياً أن نكون أخلاقيين(١).

وتنبثق بعض الحضارات (كما يذهب اسوالد شبنغلر) إلى معتقد جوهري أو رمز أولي خاص بها كما هو الشأن في نظره بالحضارات اليهودية والمسيحية القديمة والآرامية والبيزنطية والإيرانية والعربية، وهو يعني معتقداتها الأخرى ونظم حياتها وعادات أهلها وعلومها وفنونها وآدابها وكل إنجاز من إنجازاتها أو مظهر من مظاهر وجودها. فالرمز الأولي للحضارة الكلاسيكية مثلاً هو (الجسم المحدود البادي للعيان) وللحضارة الماجية (الفضاء الكهفي القببي الأزلي) وللحضارة الأبولونية (الفضاء الصافي غير المحدود)(٢).

والحضارة عند أرنولد توينبي لاتتعدى أن تكون ذات صفات عامة، كالصفة الجمالية على الحضارة اليونانية، والصفة الدينية على الحضارة الهندية، والصفة الميكانيكية التكنيكية على الحضارة الغربية، دون تعليل أو تفصيل، ويرى أنها الوحدة المعقولة للدراسة التاريخية(٣). وينكر أن تصلح الدولة أو الأمة من ناحية أو الإنسانية بكاملها من ناحية أخرى، وحدة أو محوراً لهذه الدراسة، لضيق الأول واتساع الثانية. ويوشك تمييزه للحضارات أن يغدو وسيلة عملية لحسن الفهم والإدراك أكثر منه ضرورة نظرية تفرضها ذوات هذه الحضارات الباطنة وخصائصها الفردية، كما هي الحال عند شبنغلر(٤).

ولانريد أن نزيد على مااستشهدنا به، فالمدارس التي تصنف الحضارات حسب هواها، كثيرة، ولابأس من الأخذ بما ذهب إليه توينبي، فقد ذكر الحضارة (السريانية) - بالاسم هكذا وليس الآرامية - في سياق عرضه في دراسة الحضارات.

---

(1) Oswald Spengler: The Decline of the West. Unwin Books, London 1954. part I p.175

(2) Pitrim Sorokin: Social Philosophies of an Age of Crisis. Boston 1969 p.16

(٣) قسطنطين زريق: في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٤ ص ٦٧

(٤) ألبرت اشفيتسر: فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، ص ٥

الحضارة السريانية في ميزان توينبي

يرى أرنولد توينبي، أحد أشهر علماء التاريخ في القرن العشرين، أن المجتمعات الحضارية التي سادت العالم القديم هي على التوالي: المصرية والسومرية والبابلية والحثية والسريانية، والمينوئية والهلينية والإيرانية والعربية والهندوكية والهندية والصينية وحضارات الشرق الأقصى (الصينية - والكورية اليابانية) والاندديانية واليوقاتيقية والمايانية والمكسيكية والأرثوذكسية المسيحية البيزنطية والأرثوذكسية المسيحية الروسية والحضارة الغربية.

وعهد الحضارات هذا لتوينبي، هو (أبعد عن أن يكون مطابقاً لتاريخ الحياة البشرية، لايستغرق أكثر من اثنين بالمئة من مدته الحاضرة.. أي أقل من ستة آلاف سنة من مجموع ثلاثمئة ألف سنة. وعلى أساس هذا القياس الزمني فإن أعمار الإحدى وعشرين حضارة، موزعة على مالايزيد عن أكثر من ثلاثة أجيال من المجتمعات، ومركزة في إطار زمني لايزيد عن خمس مدى الحياة البشرية، تلك الأعمار أو الحيوات الحضارية يجب أن ينظر إليها من الناحية الفلسفية، على أنها متعايشة معاً ومعاصرة لبعضها البعض)[1].

يضع توينبي في تصنيفه الحضاري قاعدتين.. الأولى دينية والثانية جغرافية.

ويقسم الإحدى والعشرين حضارة على أساس القاعدة الأولى إلى خمس فئات:

أولاً: الحضارات التي استأنفت حمل تراث ما تقدمها من الحضارات بأخذها ديانات الأقلية الحاكمة فيها واعتناقها.

ثانياً: الحضارات التي تنتسب إلى حضارات سابقة، بنشأتها في نطاق عقائد دينية - كنائس - خلفتها البروليتارية الداخلية في تلك الحضارات السابقة.

ثالثاً: هذه الحضارات المتقاربة بالنسب تنقسم هي الأخرى إلى قسمين فرعيين وذلك بالنظر إلى انبعاث بذور الحياة التي اطلعت تلك العقائد الدينية - دود

(1) Arnold Toynbee: A Study of History. Oxford University Press. London. part 1, p 45

قز الديانات - من داخل الحضارات المنتسب إليها أو من خارجها.

رابعاً: الحضارات التي تمت بصلات ضعيفة إلى حضارات سابقة، باقتباسها ديانتها عن البروليتارية الخارجية في تلك الحضارات السابقة.

خامساً: الحضارات المنقطعة عما سبقها من الحضارات انقطاعاً شاملاً.

ويضع توينبي الاحدى والعشرين حضارة على أساس القاعدة الجغرافية مقسماً إياها إلى أربعة أقسام:

أولاً: حضارة يقع موطنها الأصلي كله داخل الموطن الأصلي لبعض الحضارات السابقة.

ثانياً: حضارات يقع موطنها الأصلي كله داخل أرحب مدى بلغته الحضارات السابقة، ولكنه لايقع كله داخل الرقعة الأصلية التي استوطنتها تلك الحضارات السابقة.

ثالثاً: حضارات يقع جزء من موطنها داخل أرحب مدى عمرته إحدى الحضارات السابقة، ويقع الجزء الآخر خارجه فوق أرض بكر.

رابعاً: حضارات يقع موطنها الأصلي فوق أرض بكر[١]

وحسب هذين التصنيفين يرتب توينبي الاحدى والعشرين حضارة في سلسلة متصلة، فيظهر له في طرفيها نوعان مختلفان من المجتمعات:

مجتمعات (متصلة) بأنساب حضارية قديمة، وعددها، على اختلاف طبيعة اتصالها بين الضعف والقوة، خمسة عشر مجتمعاً.

ومجتمعات (غير متصلة) أو منقطعة، في الغالب، عن كل نسب حضاري، وعددها ستة هي: المصرية والانديانية، والسومرية، والمينوئية، والصينية والمايانية.

وركز توينبي عنايته بهذه الحضارات الست لنشأتها، في اعتقاده، عن المجتمعات البدائية، الثابتة هي الأخرى من بذور الحياة الأولية في طفولة التاريخ البشري. ويعقد، تمهيداً للبحث في نشوء الحضارات، مقارنة جديدة، بين المجتمعات الحضارية والمجتمعات البدائية، ينفي فيها أن تكون ثمة أوجه اختلاف

---

(١) ارنولد توينبي، مصدر سابق، صفحة ١٨٤

ثابتة وأساسية بين هذين النوعين من المجتمعات، فوجود المؤسسات المختلفة، ونظام توزيع العمل، والحركة الدينامية وغيرها مما تتصف به طبيعة المجتمعات الحضارية ـ هذه كلها نجد، عند التحقيق، شبيهاً لها في المجتمعات البدائية. ولكن ظاهرة هامة تتكشف لتوينبي في تلك المقارنة وهي انتقال متعاقب من (الجامد) إلى (الدينامي) في حياة المجتمعات جميعاً.. بدائية وحضارية، متصلة وغير متصلة(١).

ويمضي توينبي في شرح تطور كل حضارة من الحضارات موضع دراسته، معدداً الصعوبات التي جابهتها والانجازات التي حققتها. و«كان هناك ظاهرتان أساسيتان تسترعيان انتباه العربي المراقب أحوال الحياة الاجتماعية في الإمبراطورية الرومانية قبل ظهور الإسلام.. ظاهرة (التوحيد) في الدين، وظاهرة (النظام) و(القانون) في الدولة، وكانت كلتا الظاهرتين مفقودة في حياة الجزيرة بشكل صارخ. ولقد وجد محمد نفسه مدعواً إلى هداية أمته بصهر هاتين الظاهرتين في كيان مؤسسة عربية واحدة هي الإسلام. ومع أن الدعوة كانت في صميمها موجهة إلى عرب الجزيرة، فقد استطاع محمد أن يبعث فيها من القوة ماجعلها تتخطى حدود البيئة العربية وتعم العالم السرياني كله من سواحل الأطلسي إلى أطراف الصحراء الأوراسية»(٢).

ووجد توينبي إن الحضارة الإسلامية مكونة من اتحاد مجتمعين شقيقين هما المجتمع الإيراني والمجتمع العربي، واكتشف أن هذين المجتمعين يرجعان في نسبهما عبر ألف عام من الحقبة الهلينية في الشرق، إلى أصل الحضارة السريانية القديمة(٣)(*).

ونظر توينبي إلى هذا الإطار التاريخي كله نظرة شاملة فميز فيه ديانة جامعة، ودولة جامعة، وزمن حروب مع الشعوب المطوّفة Volkerwanderung ،

---

(١) منح خوري: التاريخ الحضاري عند توينبي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٠، ص ٢٠

(٢) ارنولد توينبي، مصدر سابق، ص ٢٧٧

(٣) ارنولد توينبي، مصدر سابق، ص ٨٢

(*) تعني كلمة Syria في اللغةالانكليزية اسم سورية، وكلمة، Syrian السوريين أو السريان، وكلمة Syriacابناء الطائفة السريانية، او السوريين القدماء ـ كما يورد ذلك ارنولد توينبي في (دراسة في التاريخ) ـ مصدر سابق ـ وهو احد اعظم الكتب التي دونت في مفهوم التاريخ البشري.

فالديانة الجامعة يمثلها الإسلام نفسه، والدولة الجامعة تمثلها الخلافة العباسية في بغداد، وزمن الحروب مع الشعوب المطوّفة يتجلى في تعرّض الدولة العباسية بعد انهيارها لهجمات الأتراك والمغول من أوساط آسيا وأوربا، واغارات البربر من شمال أفريقيا، والعرب (بني هلال) من شبه الجزيرة. ويمتد هذا الزمن المضطرب ثلاثة قرون، من عام ٩٧٥م إلى عام ١٢٧٥ م حيث يبدأ عهد انحلال المجتمع الإسلامي الذي مايزال قائماً إلى الآن[١].

كان هذا التعقيد الذي عرف به تاريخ المجتمع السرياني، وهو أصل الحضارة الإسلامية، إلى ماخالطه وشاع فيه من العناصر الآشورية والهلينية الدخيلة، فقد «قطع ذلك الاختلاط مجراه (عبر الزمن) أو قل طمسه برواسب من تربة غريبة»[٢]. على أن توينبي، رغم هذا التعقيد، يعرّفه بقوله «حين نرجع المجتمع السوري - الإيراني Syro - Iranian أو السرياني (Syriac) كما نفضل أن نسميه، إلى أصله، نجد أن سورية (Syria) هي موطنه الأصلي، وأن الفينيقيين والفلسطينيين، والإسرائيليين[*]، والآراميين - والإيرانيين الذين لم ينضموا إليه إلا فيما بعد - هم شعوبه السورية[٣]. ولقد نشأ «هذا المجتمع السرياني الذي صار فيما بعد المجتمع الإسلامي الحالي، في رقعة من الأرض تمتد من الشط الآسيوي لبحر مرمرا إلى دلتا (الكنج). والناظر إلى هذه المنطقة يراها قصيرة المدى، إذ أنها تتكون في معظمها من سلسلة مقاطعات كالأناضول وأذربيجان وخراسان وأفغانستان وهندوستان (بمعناها الجغرافي الضيق الذي يشمل سهول الهند الشمالية من البنجاب إلى البنغال، باستثناء الدكن)، غير أن تلك البقعة من الأرض تتسع في وسطها لتشمل حوض (جيحون وسيحون) على حدود الصحراء الأوراسية. أما المجتمع الإسلامي الذي نشأ في هذه الرقعة حوالي آخر القرن الثالث عشر

---

(١) ارنولد توينبي، مصدر سابق، ص ٦٧ و٦٨

(٢) ارنولد توينبي، مصدر سابق، ص ٨٤

(*) ينقض آرثر كوستلر مقولة ان اليهود الحاليين ساميون، أو انهم من نسل بني اسرائيل القدامى، ويثبت انهم آريون عامة، وقوقازيون خزر على وجه الخصوص، ومن ابرز اسانيده هنا بالذات بحوث (بولياك) استاذ التاريخ اليهودي في جامعة تل ابيب. عن: آرثر كوستلر - امبراطورية الخزر وميراثها، القبيلة الثالثة عشرة، ترجمة حمدي متولي صالح، منشورات فلسطين المحتلة، بدون تحديد التاريخ والمكان ص ٩

(٣) ارنولد توينبي، مصدر سابق، ص ٨٢

الميلادي، فقد برزت معالمه في البلدان التي قامت فيها معظم دول العالم الإسلامي الحالي - باستثناء سلطنة مراكش»[1](*).

ومن خلال استعراضه لبعض هذه البيئات الجغرافية من حيث صلاحيتها لعمليات النشوء الحضاري، يلاحظ توينبي أن تدمر والبتراء وفينيقيا كانت تشكل تحديات طبيعية (مناسبة)، وإن المجتمع السرياني الذي قام في هذه المواطن كلها استطاع بمجموعه أن يحقق ثلاث منجزات حضارية كبيرة:

أولاً - اختراع الألفية.

ثانياً - اكتشاف المحيط الأطلسي.

ثالثاً - الوصول إلى (مفهوم) معين (لله) مشترك بين الديانات الأربع: اليهودية والزرادشتية والمسيحية والإسلامية.

لقد كان لاقتباس الآراميين من الحضارة العالمية كبيراً، وهذا لايعني بالطبع أنهم لم يسهموا في بناء الحضارة البشرية، فحضارتهم الخاصة تقوم على أساس لغتهم التي تركت تراثاً ثقافياً ثراً، وكان لها أثر بعيد المدى في ازدهار الحضارة العالمية، ذلك أنهم اقتبسوا الأبجدية الفينيقية لكتاباتهم، والكتابة، كما لايخفى، هي العرق النابض للحضارة. فلم يتسنّ للحضارة البشرية أن تأخذ مسارها الطبيعي إلا بعد اختراع الحروف الأبجدية التي يعود الفضل في ابتكارها أولاً إلى الفينيقيين ومن ثم إلى الآراميين الذين طوروها بحيث أصبحت سهلة المنال والاستعمال وهو ماأشاع استعمالها.

تداخل الحضارة السريانية في الحضارة الإسلامية

تأخذ الخلافة العباسية في الإطار العام لتصميم (أرنولد توينبي) مرحلة أخيرة من مراحل الحضارة السريانية القديمة المنحلة. فقد خلفت الدولة العباسية التي أنشأها النفوذ الفارسي (نفوذ المجتمع الايراني) في بغداد، دولة بني أمية التي أنشأها العرب (المجتمع العربي) في دمشق. وإذ تبوأ العرب مكان السيادة أيام حكم

---

(١) ارنولد توينبي، مصدر سابق، ص ٦٨

(*) المملكة المغربية في الوقت الحالي.

الأمويين في رقعة دولتهم الممتدة من المحيط الأطلسي إلى ماوراء الهند وتركستان ومن البحر الجنوبي إلى بلاد القوقاز وأسوار القسطنطينية، فقد عجزوا عن صهر أطراف هذه الدنيا العريضة في كيان دولة موحدة متماسكة، وأدى مادخل في أكناف خلافتهم من عناصر المجتمع الايراني (الفرس) إلى سقوط دولتهم بأيدي هؤلاء.

ولقد استطاع (المجتمع الايراني) المهيمن فعلاً في عهد الخلافة العباسية أن يطغى على شقيقه المجتمع العربي ويبتلعه، وأن يوحد بالتالي في دولة جامعة تلك الإمبراطورية الإسلامية الكبرى[1].

يرى توينبي أن الاختلاف بين المجتمعين الايراني والعربي المنحدرين من أصل الحضارة السريانية القديمة لم يصدر عن سبب ديني كما هي الحال بالنسبة إلى الانقسام الذي حصل بين فرعي المجتمع الهليني (الغربي والأرثوذكسي). ومع أن الإسلام قد انشق إلى شيعة وسنة كما انقسمت المسيحية إلى كاثوليكية وأرثوذكسية فإن ذلك الانشقاق الديني ليس معادلاً للانشقاق الذي حصل بين المجتمع العربي والمجتمع الايراني. كذلك يلاحظ توينبي حين يقارن بين الإسلام بطائفيته والمسيحية بطائفيتها أن المجتمع الإسلامي الذي ظهر في المنطقة الفارسية التركية أو الايرانية هو أشبه بالمجتمع العربي من شقي الحضارة الهلينية، وأن المجتمع الثاني الذي ظهر في المنطقة العربية هو أشبه بالمجتمع الارثوذكسي[*].

ويأخذ توينبي بين مصدر القوة الخلاقة في المسيحية، أي الديانة الجامعة للحضارة الهلينية، وبين مصدر القوة الخلاقة في الإسلام، الديانة الجامعة للحضارة السريانية، فيجده سريانياً دخيلاً على الهيلينية في الديانة الأولى بينما يجده أصيلاً منبثقاً عن صلب المجتمع السرياني في الديانة الثانية. وقد تأثرت التعاليم الإسلامية النسطورية وهي طائفة مسيحية يطغى في معتقدها العنصر السرياني على العنصر الهليني، ويضيف توينبي إلى ذلك قوله: إن مؤسسة هامة كالديانة الجامعة لايمكن أبداً أن تكون وليدة مجتمع واحد، ففي المسيحية نتعرف إلى عناصر يونانية استمدت من الديانات والفلسفات اليونانية القديمة، وكذلك على نطاق أضيق

---

(1) Pieter Geyl: From Rankee to Toynbee. Northampton, Mass, 1952 P.191.

(*) تستند الوقائع هنا من استخلاصات كتاب توينبي: دراسة في التاريخ. مصدر سابق مكرر.

بكثير نستطيع أن نجد في الإسلام بعض التأثيرات الهلينية بوضوح[1].

أخيراً، يرى توينبي في مجال نظرياته العامة، أن الحضارة الإسلامية متصلة، عبر ألف عام من الحقبة الهلينية في الشرق، بالحضارة السريانية القديمة، وأن الإسلام ديانة جامعة نشأت في صلب المجتمع السرياني وكانت الاستجابة الوحيدة الناتجة في زحزحة تحدي الحقبة الهلينية عن صدر ذلك المجتمع السرياني المنحل. ويرى إلى أن الإسلام قام بتأثير عاملين خارجيين لسد حاجتين أصليتين في حياة المجتمع العربي في الجزيرة، هما التوحيد في الدين والنظام في الدولة، وأنه متأثر من حيث المعتقد بالنسطورية وبعض العناصر الهلينية ثانياً.



(1) Abba Eban: The toynbee Heresy Knopf, New York 1955 P 42

المسيحية السريانية

حين انبثقت المسيحية في فلسطين، كان مجتمع العبودية الروماني يخيّم على الناس بما فيه من ظلم واستبداد واستغلال وهذا ماعمّق جذور الفوارق بين طبقاته، بحيث وجدت الطبقات الفقيرة في التعالي تعزية لها في الحياة الدنيا وأملاً بالسعادة في الحياة الآخرة، حيث بشّر المسيح بأن الناس أخوة ويجب أن يحبوا بعضهم بعضاً، وأن الذين يؤمنون برسالته ويطبقّون قواعد الأخلاق التي نطق بها ستكون لهم الحياة الأبدية. فالعبيد والفلاحون والشيوخ والإمبراطور سواسية عند الله حيث لامجال للتمييز الاجتماعي، وإنما الفضائل الشخصية وحدها هي التي تدخل في الحساب يوم القيامة.

وفي ذلك كان أول المؤمنين بتعاليم المسيح هم الفقراء والعبيد والأرقاء، أما الطبقات الغنية والسلطات الرومانية المسيطرة فقد رأت في البدء في هذه التعاليم خطراً على سلامتها ومصالحها، وخشيت أن تنبثق عنها حركة إصلاحية تطيح بالأوضاع الاجتماعية والسياسية القائمة، ولذلك أمرت بقتل المسيح وبملاحقة المسيحيين واضطهادهم.

ويمكن القول هنا أن التعاليم المسيحية لم تكن تمثل نظرية إصلاحية تدعو إلى تحريض الناس الفقراء إلى العصيان ضد الطبقات المستغلة والسلطات الاجتماعية المستبدة، فأقوال المسيح صريحة في هذا المجال، ومنها قوله: (أعطو مالقيصر لقيصر ومالله لله)، ويقول بولس الرسول مايفيد: (لاسلطة إلا من الرب، فمن يعارض السلطة يقاوم النظام الذي أقره الرب). على أن دعوة المسيحية إلى المساواة كانت تتناقض كلياً مع وجود الفوارق الطبقية والامتيازات والاستقلال، كما كانت مناداتها بالكفاف الاقتصادي بمثابة انذار موجه للطبقات الغنية للكف عن استغلال جهود الفقراء من الناس.

وحين انتشرت المسيحية على نطاق واسع واعترفت بوجودها السلطات الرومانية بدأ الأغنياء يعتنقونها ليحافظوا على امتيازاتهم ويترأسوا المسيحيين الفقراء. وهكذا تحولت المسيحية تدريجياً إلى ديانة تخدم مصالح الطبقات الغنية المسيطرة آنذاك، كما فقدت طابعها الاشتراكي الديمقراطي. وأما السلطات الرومانية فقد أوقفت في مطلع القرن الرابع اضطهاد المسيحيين واعترفت بوجود الديانة المسيحية لتكسب ولاء المسيحيين سكان المقاطعات الشرقية من جهة، ومن جهة ثانية لتستخدم المبشرين المسيحيين في نشر ديانتهم بين القبائل البربرية الوثنية لكسر حدة طباعهم[١].

كانت اللغة السائدة في فلسطين آنذاك هي اللغة الآرامية السريانية، وقد أتينا بشواهد على ذلك في غير هذا الفصل بشكل واضح وجلي. وقد دخلت المسيحية إلى سوريا عن طريق مناداة بولس الرسول (أعمال ١٥: ٢٣ و ٤١ و ١٨: ١٨ وغلاطية ١: ٢١)، كما أطلق اسم (مسيحيين) لأول مرة على أتباع يسوع الناصري في أنطاكية (أعمال الرسل: ١١: ٢٦).

كما كانت أنطاكية مدينة على نهر العاصي على مسافة خمسة عشر ميلاً من البحر الأبيض المتوسط. وقد أسس هذه المدينة سلوقس نيقاطور أحد قواد جيش الاسكندر الأكبر عام ٣٠٠ ق.م ودعاها انطاكية نسبة إلى أبيه أنطيوخس. وقد أسس سلوقس أيضاً سلوقية على مصب نهر العاصي لكي تكون ميناء لأنطاكية. وقد صارت أنطاكية عاصمة السلوقيين وهم نسل سلوقس وأتباعه الذين صاروا حكام سورية من بعده (أمك ٣:٣٧). وفي عام ٦٤ ق.م أخذ المدينة بومباي القائد الروماني وأصبحت إقليم سورية الروماني. وكانت أنطاكية مركزاً مهماً للتجارة والتبادل الثقافي بين الشرق والغرب، كما كانت ثالث مدينة في الإمبراطورية الرومانية (بعد روما والاسكندرية) وكانت الآلهة (تيحنى) أو (الحظ) هي آلهة أنطاكية الخاصة، وكانت تقوم عبادة (أبولو) في (دفني) بالقرب من أنطاكية على كثير من الرجس والنجاسة والممارسات الجنسية الجامحة. وكان في أنطاكية جماعة كبيرة من اليهود ومن بينهم ظهر المسيحيون الأول في المدينة[٢].

---

(١) يوسف مريش: شرعية انتشار المسيحية، مجلة النشرة، بيروت، العدد الخامس، ايار ١٩٩٦ ص ٤١

(٢) نخبة من الأساتذة: قاموس الكتاب المقدس، منشورات مكتبة المشعل، بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨١ ص ١٢٤

وكانت أنطاكية عاصمة سورية حين انبلج فجر المسيحية، كما كانت تعج بمختلف العناصر، بينهم الآرامي المحلي والعربي والهيودي، إلى جانب الجالية اليونانية التي كان قد استقدمها السلاقسة لغايات سياسية، وأضحت اما للكنائس الأممية وقاعدة للنصرانية.

وقد دعيت أنطاكية سورية تمييزاً لها عن المدن اليونانية الخمس عشرة التي أسس مثلها سلوقس نيقاطور وسماها باسم أبيه انطيوخس.

وعلى أثر العاصفة التي أثارها اليهود سنة ٣٦ ووقع بها أول الشهداء، تفرق بعض تلاميذ المسيح ووصل بعضهم إلى أنطاكية حيث أطلقوا ألسنتهم في المناداة بالدين الجديد بين أنسبائهم وخلانهم اليهود، فاجتذبوا عدداً كبيراً منهم. وهكذا نمت أنطاكية المسيحية وقامت أول كنيسة في أنطاكية سنة ٣٦ .

وكانت كنيسة أورشليم هي التي أوفدت الرسل والمبشرين الذين أذاعوا كلمة الانجيل في أنطاكية، وكان عملهم التبشيري الأول بين اليهود بني جنسهم. وحيث أن لغة العبادة في كنيسة أورشليم كانت السريانية، لغة المسيح، بل لغة اليهود سحابة الجيل الأول الرسولي وماسبقته من أجيال اليهودية حتى المئة الخامسة ق.م، فمن البديهي أن تكون هذه اللغة هي لغة العبادة في كنيسة أنطاكية أيضاً. وقد استعملت كنيسة أنطاكية الليتورجية السريانية (خدمة القداس) التي وضعها ماريعقوب أخو الرب أول أساقفة أورشليم فنسبت من ثم إليها[١].

ولاشك في أن الرسل والمبشرين قد أقاموا القدسيات بهذه اللغة حيثما يمموا، وفي ذلك يقول فيليب حتى (والإشارة الثانية، إن لم تكن الأولى للمسيحيين، وجدت مكتوبة بالآرامية بحروف لاتينية مشوهة على جدار مسكن ربما كان كنيسة في بومبي (إيطاليا) مما يجعل تاريخها قبل عام ٧٩ م)[٢].

وعلى ذلك يمكن القول أن كنيسة أنطاكية الأولى قد مارست سر القربان المقدس بالسريانية، وتقدست هذه اللغة بميلاد المسيح وتربيته وعجائبه وتعاليمه وخطبه وتأسيسه لأسرار التجسد الفدائية، وتشرفت بفمه الطاهر ونعم أمه

---

(١) البطريرك ماراغناطيوس يعقوب الثالث: كنيسة انطاكية سوريا، المجلة البطريركية، العدد الأول آب ١٩٦٢ ص ١٩

(٢) فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد و د. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ١٩٥٨ ، الجزء الأول ص ١٨٢

الطوباوية ورسله القديسين. وهوذا أوسابيوس القيصري، أبو التاريخ الكنسي، يسمى مار بطرس الرسول (سريانياً) ويعلن أن الرسول قبل حلول الروح القدس لم يكونوا يعرفون سوى (اللغة السريانية).

وسمعت باللغة السريانية، أول ماسمعت، أحداث البشارة في اليهودية وسورية وماجاورهما من البلدان، وبها تناقش المجمع الرسولي في أورشليم سنة ٥١ ، كما كتب بها متى الرسول انجيله لمنفعة اليهود المتنصرين. وإليها نقل بعض هؤلاء اليهود في الجيل الأول أول ترجمة للكتاب المقدس، وهي المعروفة بالبسيطة التي عقبتها ترجمة أخرى متينة للعهد الجديد لاستعمال كنيسة أنطاكية خاصة، سميت بالترجمة السريانية الأنطاكية، وتعرف اليوم بـ (السينائية) لوجود نسختها في دير طورسينا عام ١٨٩٢ وهي موسومة بعدد ٣٠ بخط يوحنا المعمودي في دير مار قانون في معرة مصرين سنة ٦٩٨ أو ٧٨٩ ونشرتها السيدة لويز عام ١٩١٠ وقد خيل إلى فريق من العلماء المعاصرين أن الفيلسوف ططيانس السرياني اعتمد نحو سنة ١٧٢ على هذه الترجمة في جمع مجموعه الموحد (الدياطسرون) من الأناجيل الأربعة(١).

ولابأس من شرح بعض الشيء الترجمة السريانية البسيطة، فهي من أقدم ترجمات الكتاب المقدس بعد الترجمة اليونانية المعروفة بالترجمة السبعينية، وأكثرها انتشاراً، وأوسعها قراءة وتداولاً على مدى أجيال طويلة. دُعيت بالسريانية (فشيطتا) أي السهلة الميسرة، وشاع هذا الاستعمال منذ بداية القرن التاسع الميلادي(٢).

وحسب النقل السرياني البسيط (فشيطتا) تكشف مخطوطات أسفار موسى الخمسة عن وجود نصين في فترة باكرة: أولهما، نقل أكثر حرفية عن اللغة العبرية، وثانيهما، نص قريب شديد القرب من الترجوم الفلسطيني. وقد رأت طائفة من العلماء والدارسين أن الترجمة الحرفية أقدم زمناً بناء على أن أفراهاط الفارسي، وأفرام السرياني، وهما من أبرز آباء الكنيسة السريانية في عصورها

---

(١) البطريرك افرام برصوم: اللؤلؤ المنثور، مطبعة ابن العبري، دير مار أفرام السرياني، هولندا ١٩٧١، الطبعة الرابعة ص ٥٢١

(2) W. Wright: A Short History of Syriac Literature, Oxford University Press, London. 1961 P3.

الأولى، اقتبسا نصوصاً تطابق الأصل العبري بصورة اشد قرباً مما يفعل النص المتداول في القرن السادس(١).

وإذا اعتبرنا الترجمة الآرامية الحرفية كعمل قام به مترجمون يهود لجماعة يهودية تتحدث اللغة الآرامية، فسيظهر دون شك، أن الكنيسة السريانية كانت قد تبنت هذه الترجمة بعدما أدخلت عليها بعض التحسينات في اللغة والأسلوب، ثم قُبل النص كمقياس رسمي في غضون القرن الخامس بعد الميلاد. وكانت الكنيسة السريانية قد ثبتت جذورها وتأصلت في منطقة أربيل عاصمة مملكة حذياب، قبل نهاية القرن الأول، وأصبحت الرها الواقعة إلى الشرق من الفرات الأعلى في مطلع القرن الثاني، مركزاً بارزاً لمسيحية بلاد مابين النهرين. ولما بات الإيمان المسيحي، في صدر المئة الرابعة، دين الإمبراطورية الرومانية رسمياً، بُدئ بإنتاج مخطوطات متقنة للترجمة اليونانية (السبعينية).

وفي ذلك يقول (ب. روبرتس).. إنه من المعقول أن نفترض أن تطويراً مماثلاً حدث للترجمة السريانية البسيطة (فشيطتا)، وهكذا، فقد أعتقد أن محاولة جرت لتنقيح نص الترجمة السريانية بغية مطابقتها للترجمة السبعينة. وقد تم هذا العمل بعد فترة قصيرة من الانتهاء من تنقيح ترجمة العهد الجديد السريانية (فشيطتا)، ولكن يبدو من الواضح، أن هذا التهذيب لم ينجز بنفس الطريقة بالقياس إلى الأسفار المقدسة كلها. لذا، فإن سفر المزامير وكتب الأنبياء، كانت قد روجعت على النقل اليوناني بدقة، وذلك لأهميتها الكبيرة بالنسبة إلى العهد الجديد. هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى، فنادراً ماتناولت يد التهذيب والتنقيح سفر الأمثال وأيوب، ومايقال عن هذين السفرين يمكن أن يقال عن سفر التكوين كذلك(٢).

ويمكن القول إنه في مرحلة تاريخية مبكرة جداً تمت ترجمات العهد القديم إلى اللغة السريانية، ولم يقم بهذه الترجمات شخص واحد، بل أشخاص كثر، عملوا في ظروف وأزمنة مختلفة. وبعد انتشار المسيحية في بلاد مابين النهرين ترجمت الكتب التي هي الأسفار المكونة للعهد الجديد، والكتب اللاهوتية

(3) The New Bible Dictionary, London. P1261-62.
(2) B. J. Roberts: The Old Testament Text and Versions. Crom Helms, London 1951, P.222

والمواعظ الدينية. وقد تركز الانتباه بصورة خاصة على التفسير والشروح والتعليقات، التي قدمت هذه التوضيحات أو تلك لنصوص الكتاب المقدس.

سريان سورية المسيحيون

أدت العاصفة الهوجاء التي أثارها اليهود سنة ٣٦ على الكنيسة الفتية في أورشليم، والتي صار فيها كبش الفدى ماراسطيفانوس بكر الشهداء، إلى ولوج نور الانجيل مخادع الانطاكيين. ومن أوائل الشمامسة في المسيحية في أورشليم رجل يدعى نيقولاوس من أنطاكية، وقد اهتدى من الوثنية إلى اليهودية ثم صار شماساً مسيحياً (اع ٦ :٥). وبعد استشهاد ماراسطيفانوس هرب المسيحيون من أورشليم إلى أنطاكية وبشروا بالانجيل بين أنسبائهم وخلانهم فاجتذبوا منهم خلقاً كثيراً إلى الحظيرة المقدسة، كذلك انضم إليهم بعض اليونانيين.

ولما هدأت العاصفة وبلغ خبر اهتدائهم مسامع الكنيسة في أورشليم، رفدتهم بمار برنابا الذي ضم إليهم بدوره جمعاً غفيراً. ثم جاء بـ شاول (بولس الرسول) حيث أقاما معاً سنة كاملة يعلمان اليهود ويهديهانهم سواء السبيل. وقد أرسل المسيحيون في أنطاكية عطايا وتقدمات إلى المسيحيين في أورشليم أثناء المجاعة (ع١١: ٢٩ و ٣٠) وأرسلت أنطاكية الرسول بولس في ثلاث رحلات تبشيرية (١ ع ١٣: أو ١٥: ٤٠ و ١٨: ٢٣)، وقد عاد إلى الكنيسة هناك بعد الرحلتين التبشيريتين الأوليين ليقدم لها تقريراً عن خدمته (١ ع ١٤: ٢٦ - ٢٨ و ١٨: ٢٢).

وفي أعقاب ذلك قدم إليها من أورشليم أنبياء ومعلمون سمعان الذي يدعى نيجر ولوقيوس القيرواني ومناين الذي تربى مع هوميروس رئيس الربع، فوضعوا الأيدي على برنابا وشاول بافراز خاص من الروح القدس للخدمة المثلى (١ ع ١٣: ٢). وهكذا قامت أول كنيسة في أنطاكية سنة ٣٦ من بعض الأوساط اليهودية المتنصرة[1]. وسبق تنصر الآراميين الأنطاكيين غيرهم من الأميين سكان أنطاكية، نظراً إلى وحدة لغتهم واليهود آنذاك.

---

(١) البطريرك ماراغناطيوس يعقوب الثالث: كنيسة انطاكية سوريا، المجلة البطريركية، دمشق، العدد الأول، آب ١٩٦٢ ، ص ١٧ ، مصدر سابق.

ويعتبر التاريخ الكنسي ماربطرس الرسول مؤسساً للكرسي الأنطاكي الذي امتدت سلطته إلى أقصى الشرق على اختلاف عناصره وأجناسه، ورئس في أوج عزه اثنى عشر كرسياً مطرانياً ومئة وسبعة وثلاثين كرسياً اسقفياً، كما بلغ عدد بطاركته منذ ماربطرس الرسول إلى اليوم مئة واثنان وعشرين بطريركاً قانونياً.

وإذا كان السواد الأعظم من أبناء كنيسة سورية هم سريان جنساً ولغة، فإن كثيرين من بطاركتها وأساقفتها وأبنائها برعوا باليونانية، لغة الدولة والأدب في الشرق في القرون الأولى، ووضعوا بها مؤلفات نفيسة كالبطريركيين(*) اغناطيوس النوراني (١٠٧ +) وتاوفيلس (١٨٢ +) والذهبي الفم (٤٠٧ +) شأنهم في ذلك شأن أهل سورية ولبنان بالنسبة إلى اللغتين التركية والفرنسية إبان الحكم العثماني والانتداب الفرنسي.

ولابأس من الاستشهاد بما قاله د. فيليب حتى في ذلك..

(ولما كان السوريون يعرفون عدة لغات دائماً فإن الذين اهتموا منهم بالمحاماة درسوا اللغة اللاتينية، أما الذين وجدوا خارج المراكز ذات الصفة العالمية فإنهم تمسكوا باللغة الوطنية. وكان على الموظفين البيزنطيين في الداخل أن يستخدموا التراجمة. ويشكو يوحنا فم الذهب في أنطاكية ذاتها بأن الذين كانوا يستمعون إليه لايستطيعون فهم مواعظه اليونانية وأن الكهنة كانوا لايسمعون سوى السريانية الدارجة)[1].

صمود الكنيسة السريانية السورية

أول بلد في العالم اتخذ المسيحية ديناً له كان في سورية، ومن ميلاد المسيح وإلى القرن السادس شهدت المسيحية، تعاقب عدة أمور على هذه الديانة الحديثة.. أولها كان سيطرة الفكر العقيدي الأصولي، ثم تواكبت الأفكار والآراء

(*) لم يظهر لقب (البطريرك) - وهي لفظة يونانية وتعني الاب العام - الا بعد المجمع الخلقيدوني (٤٥١)، وقد أعطى في بادئ الأمر الكراسي الرئيسة: روما، القسطنطينية، الاسكندرية، اورشليم، انطاكية. وقد تبنته انطاكية المشرق في الفترة ما بين هذا التاريخ ومنتصف القرن السادس.

(١) د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١ ، ص ٤٠٩ ، مرجع سابق.

التبشيرية الكلامية بهيمنة النظرة الفلسفية ـ الرب ـ اللوغوس (في البدء كان الكلمة)، فربطت بذلك المسيحية مع الأفكار الاغريقية القديمة، ومع التراث الثقافي الهليني، والتي تستند على أن اللوغوس (الكلمة) يجسد وحدة الإله والإنسان معاً.

وقد تكون التعليم اللاهوتي مابين القرنين الرابع والخامس للميلاد نتيجة للمجادلات الحامية حول الطبيعة المزدوجة للمسيح (الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية) (اللاهوتية والناسوتية). وقد مرت المسيحية هنا بطورين أساسيين، يتمثل أولهما في إرسال الأسس اللاهوتية ـ العقيدية للدين المسيحي، وكان من أبرز معالمه، الصراع ضد الاريوسية (نسبة إلى اريوس الكاهن المصري المولود سنة ٢٥٦م)، في حين أن الطور الثاني تميز بالمجادلات العنيفة، والنقاشات الحامية بين النساطرة(*) والمنوفستيين(**) والخلقيدونيين(***) حول طبيعة يسوع المسيح وأمه مريم ومفهوم التجسد وغير ذلك.

ذكرنا قبل قليل النساطرة التي تتشابه لغتهم باللغة السريانية، ويرجع أصل التسمية إلى أنه في سنة ٤٢٨ جلس (نسطور) السرياني المرعشي والقس الأنطاكي، على كرسي بطريركية القسطنطينية، وماعتم أن صرح، خلافاً للتقليد الكنسي، بأن العذراء مريم لم تلد كلمة الله بل إنساناً بحتاً هو المسيح، ولذلك لايجوز أن تدعى والدة الإله. أما المسيح فلم يكن إلهاً ولاابن الإله، بل إنساناً أضحى في الثلاثين من عمره هيكلاً لكلمة الله الذي انفصل عنه في أثناء صلبه، فكان المصلوب من ثم إنساناً بحتاً. وبما أن المسيح كان هيكلاً فقط للكلمة، لم يكن هنالك أي اتحاد بين المسيح والكلمة، بل كانت ذات كل منهما مستقلة عن الأخرى. وكنتيجة لهذا الاستقلال، فقد كان للمسيح اقنومان وطبيعتان تفعل كل منهما مايخصها على حدى.

ولما التئم المجمع المسكوني الثالث عام ٤٣١ في أفسس برئاسة القديس

(*) النسطورية تجعل من كلمة الله ومن المسيح ذاتين اتحدتا اتحاداً سطحياً.

(**) المنفوسية تجعل من المسيح طبيعة واحدة.

(***) الخلقيدونية تجعل للمسيح طبيعتين متميزتين: لاهوتية وناسوتية، متحدتين كل الاتحاد ولكنهما غير ممثلتين أو ممتزجتين.

كيرلس الاسكندري، حرمه مسفهاً رأيه. وقد عرف قرار هذا المجمع بعدئذ بالتقليد الكيرلسي. وفي سنة ٤٥١ وافق المجمع الخلقيدوني على قسم من التقليد الكيرلسي وهو أن العذراء مريم هي والدة الإله، وأن للمسيح اقنوما واحداً. بيد أنه تبنى قسماً من تعليم نسطور وهو أن للمسيح طبيعتين، وأن المصلوب كان إنساناً بحتاً، فانشطرت المسيحية اثنين. وفي سنة ٤٧٦ اتحدت بكراسيها: الاسكندري، القسطنطيني، الأورشليمي وغيرها، مجمعه على التقليد الكيرلسي، فأصبح القول بالطبيعة الواحدة عقيدة الدولة الرسمية حتى سنة ٥١٨ ، وذلك في عهد القياصرة باسيليسكوس وزينون وانسطاس[١].

وكان عام ٤٨٠ حين لجأ أساطين النساطرة إلى المملكة الفارسية، حيث وشوا لدى عاهلها فيروز بالارثوذكسيين بأنهم يتجسسون على بلاده لحساب الروم، فصلب القديس بابويه جاثليق المشرق، ومد النساطرة بمفرزة من الجيش ليطوفوا بها الكنائس الأرثوذكسية ويخضعوها لمذهبهم عنوة. ومع شدة الاضطهاد، فقد ظلت هنالك كنيسة سريانية معتبرة، أمينة على التقليد الكيرلسي السديد، ومرتبطة بالكنيسة السريانية الانطاكية الأم. وقد ترأسها طيلة الربع الأول من القرن السادس مار شمعون الارشمي، الذي طاف البلاد بتشجيع قبادين فيروز (٤٨٨ ـ ٥٣١) وجمع تواقيع الأرثوذكسيين التي صدقت بخاتم قباد وحفظت في تكريت[٢].

في ذلك الوقت كانت سورية تقع على الطرف الشرقي الأقصى للإمبراطورية البيزنطية، متجاورة مع الإمبراطورية الفارسية. ولهذا فقد تأثرت سورية قبل غيرها بالعقائد الثنوية، الآتية من هناك (الزرداشتية والمانوية) وبالعقيدة الجبرية أيضاً. فكان على إيديولوجي المسيحية السريانية أن ينافحوا عن مرتكزات عقيدتهم، القائمة على الإقرار بوجود الطبيعة البشرية في شخص المسيح ـ ضد الثنّوية، التي تفصل فصلاً مطلقاً بين الطبيعتين البشرية والإلهية المتحدتين في المسيح بحيث تلغى أحدهما لصالح الأخرى ـ من جهة، وعلى التأكيد على مبدأ

---

(١) البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث: الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية، دمشق ١٩٦٦ ص ١٠

(٢) البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث: دفقات الطيب، دمشق، ص ٣١ و ٣٢

حرية الإرادة البشرية، المتمثلة في السلطة على قوى الطبيعة من جهة ثانية ـ ضد الجبرية.

كما ترافق الجدال العقائدي ـ اللاهوتي المحتدم فيما بين القرنين الرابع والسادس للميلاد بصراع سياسي وصراعات اجتماعية ـ اقتصادية جرت في بيزنطة. وفي بداية القرن الميلادي الخامس قويت وتميزت أوضاع منطقتين هامتين جداً من تلك الإمبراطورية، ونعني بهما مصر وسورية. ونظراً لامتلاك هاتين المنطقتين درجة متقاربة من الإمكانيات والقدرات الاقتصادية، فقد تنافستا بينهما منافسة قوية لكسب قصب السبق إلى حد ما في الخلافات والانشقاقات، التي حصلت بين مدرستي الاسكندرية وأنطاكية اللاهوتيين، وقد اختلفت هاتان المدرستان في أسلوب التأويل وتفسير الكتاب المقدس. أما الأسس الفلسفية لاختلافهما فإنها تقوم على تقليدين، تعود بدايتهما إلى مدرسة الاسكندرية المتأثرة بأفلاطون، ومدرسة أنطاكية المتأثرة بفلسفة أرسطو.

وفي خضم المخاضات التي عانتها المسيحية السريانية، كانت معاهد هذه الكنيسة الثقافية العديدة، نهراً متدفقاً بالانتاج العلمي والديني مدة استغرقت نحو ألف وثلاثمئة سنة. وقد حافظت على مارسمه رسل المسيح والآباء الأولون من العقائد وفروض العبادة، وصانت استقلالها الديني بتضحيات أئمتها الاعلام وأبنائها البررة. وفي سبيل ذلك صمدت وصبرت على مانهال عليها من نوائب ومحن شداد، وكان أشدها عنفاً وأطولها عهداً في خطتين متتابعتين:

الأولى: اضطهادات الحكومات الوثنية الرومانية والفارسية، وكانت عامة خلال القرون الأربعة الأولى.

الثانية: من قبل الدولة البيزنطية المسيحية، وكانت خاصة، حين أثيرت ضدها منذ سنة ٤٥١ ولم تنته إلا بدخول جحافل العرب الفاتحين إلى هذه البلاد في النصف الأول من القرن السابع الميلادي.

وكان من أشهر المجاهدين في المدة الأخيرة القديس يعقوب البرادعي (٥٤٣ ـ ٥٧٨) الذي عانى المشاق واحتمل الظلم والمضايقات في سبيل تثبيتها وتعذيتها والايلاف بين شعوبها العديدة، فنجح بعناية كبيرة. وهذا ماجعل أعداء الكنيسة يطلقون على السريان الأرثوذكس اسم اليعاقبة لتبقى لهم كلمة الأرثوذكس مرادفة لملتهم.

ويعتبر السريان الأصليون هم ممن ينتسب إلى الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، التي هي أعظم أثر للمسيحية الأولى والمثال الحي لأشهر أمة نشرت العلوم والآداب، وخدمت العالم العربي والشرقي بعلوم أبنائهم وفنونهم وإدارتهم، خدمة يجلهم التاريخ بها. ولعلمائهم علاقات وثيقة بالأمة العربية ولغتها وآدابها، وهم الذين ترجموا العلوم الطبية والفلسفية والمنطقية والتاريخية والفلكية وغيرها إلى اللغة العربية.

ورغم الانشقاقات والتصدعات التي أصابت هذه الطائفة بفعل عوامل داخلية وخارجية، وانقضاض الطوائف الأخرى عليها، وقضم مواطنيها ورجال دينها، وسلبها كنائسها وأديرتها، فإنها بقيت صامدة، لأنها كنيسة وطنية تشعر أن نبتها قوى في هذه البلاد.

وللتذكير فقط، فقد كان هناك مئة وأربعة وعشرون دير في سورية الجنوبية يتبع للسريان، لم يبق لاواحد منهم، فبعضه كان في دمشق وحواليها كداريا وكفرسوسة وحلبون وكفرحور وحينه وراشيا وبيتيمه.

وتذكر الكتب القديمة مدى انتشار السريان في سورية الجنوبية الغربية، وإلى أي حد كان لهم شأنهم وجبروتهم، ولكن عواصف الزمان جعلت دمشق تخلو منهم.. أي (السريان الأرثوذكس) عام ١٨٤٠ أمام حملات التبشير التي أخذت الكثير منهم إلى طوائف أخرى.

وقد عاود السريان رجوعهم إلى دمشق في العقد الثاني من القرن العشرين، بعد أن تم حصرهم في أقصى شمال سورية، وبعض قرى حمص، ناهيك عن وجودهم في عراق سورية الطبيعية[١].

---

(١) للوقوف على التحول الديموغرافي للسريان وتفاصيل أخرى راجع: سمير عبده: السريان قديماً وحديثاً، منشورات المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمّان ١٩٩٧


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

الأصول التاريخية للغة السريانية

يكاد يجمع القول على أن اللغة الكنعانية، بموجب تحقيقات علماء اللغات القديمة، تعتبر أصل اللغات السامية، أي اللغة الأم التي تفرعت عنها باقي اللهجات.

ويعني ذلك أن أقدم كتابة بأقدم حروف أبجدية معروفة حتى الآن هي الكتابة الكنعانية السينائية القديمة. وقد قسم علماء الأبجديات التي تفرعت عن الكنعانية القديمة، إلى مجموعتين رئيسيتين: المجموعة السامية الشمالية والمجموعة السينائية العتيقة. وقد تفرع من المجموعة الأولى الكنعانية وفروعها: الفينيقية والعبرية القديمة والقرطاجية والليبية والآرامية وفروعها النبطية والعبرية المعروفة بالمربع والسينائية المتأخرة والعربية وغيرها. أما المجموعة الثانية، أي السينائية العتيقة فقد تفرعت منها السامية الجنوبية والسبئية الاثيوبية وغيرها.

ولما كانت أداة تعبير عن حضارة الشعوب فإن اللغة الكنعانية والآرامية المنحدرتين من السامية الشمالية بقرون عن حضارة معظم الشعوب التي هجرت الجزيرة العربية وتمركزت في المشرق العربي (الهلال الخصيب حسب التسمية العربية) فقد اتخذت هذه الشعوب في سياق التاريخ اللاحق اسم عرب نسبة إلى اللغة العربية القرشية الغنية في تعابيرها ومضامينها، ذلك الغنى الذي حقق لها السيادة على سابقتها الآرامية التي كانت اللغة الرسمية لكل بلدان المشرق العربي حتى انتصار اللغة العربية عليها[1].

والفضل في انتشار الآداب السريانية الآرامية يعود إلى انتشار هذه اللغة التي

(١) هـ. ي. ديل: اللآلئ من النصوص الكنعانية، ترجمة عرنوق، منشورات مجلة فكر، بيروت ١٩٨٠ ص ١٢ و ١٣

ليست أقدم لغات العالم فحسب، بل أقربها أيضاً إلى الينبوع الحقيقي الذي تدفقت منه الحياة العقلية للأمم الشرقية، فلذلك لم يكتف أهلها بنشر هذه العلوم والآداب التي هي ثمار العقول الكبيرة والأدمغة المتوقدة في أقطارهم، بل أدخلوها كافة الأقطار التي وطئتها أقدامهم، أي في حدود بلاد الأرمن والروم شمالاً وتخوم بلاد العرب جنوباً، وأقصى بلاد مصر والصعيد غرباً، وفي البلاد التركمانية والتترية بين سنة ٦٣٦ - ٧٨١

بداية.. اللغة الآرامية

تمتد جذور السريان إلى الآراميين، وهم مجموعة الشعوب التي أطلق عليها مصطلح (الشعوب السامية) استناداً إلى ماجاء في سفر التكوين واعتباراً من أن هذه الشعوب منحدرة من سام بن نوح. وآرام هو أحد أبناء سام، وإليه نسبت إحدى القبائل الآرامية المتعددة. ثم تغلبت هذه التسمية على تسميات القبائل الآرامية الأخرى مثل أحلامو، عبيرو، وسوتو. وربما كان ذلك في القرن الثاني عشر ق.م حيث ورد في أخبار الملك الآشوري تغلاثفلاصر الأول اسم قبائل، أي أكثر من قبيلة، على هيئة (آرامي)[١].

ولكن وجود اسم آرام يرجع ولاشك إلى ماقبل هذا التاريخ، حيث وردت هذه التسمية في كتابة مسمارية ترجع إلى عهد الملك الأكدي نرام - سين (٢٢٦٠ - ٢٢٢٣ ق.م) كما وردت في كتابة أخرى إشارة إلى دويلة باسم (آرام) في جنوبي العراق[٢].

على أن الآراميين لم يظهروا كشعب ذي كيان وسيادة على مسرح التاريخ بصورة واضحة قبل القرن الخامس عشر ق.م . أما ظهورهم الفعلي فقد كان مابين القرنين الثاني والحادي عشر ق.م حيث ازدهر نشاطهم السياسي على أثر التضعضع الذي هز كيان الإمبراطورية الآشورية بعد عهد ملكها تغلاثفلاصر الأول[٣].

---

(١) طه باقر: مجلة التراث الشعبي العراقي، بغداد، حزيران ١٩٧١ ص ١٩

(٢) د. احمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، العربي للنشر والطباعة، دمشق، الطبعة الثامنة ص ٥٤

(٣) المطران غريغوريوس صليبا: الممالك الآرامية، دراسات سريانية، حلب، ص٦، مرجع سابق.

ولما ظهر المسيح اختلفت الروايات حول لغته التي تكلم بها. فالبعض قال إنه تكلم اليونانية، بدليل أن أكثر أسفار العهد الجديد دونت بها. وذهب آخرون إلى أن لغته الأصلية كانت العبرية بحجة أنه نشأ وترعرع في بيت وبيئة يهوديين، وأنه لما دخل الهيكل قرأ الكتب القديمة في العبرية الأصيلة وبها حاجج أئمة الدين من اليهود. ولكن أكثر المؤرخين يؤكدون أن المسيح تكلم اللغة السريانية التي كانت تسمى عصرئذ بالعبرية.

صحيح زعم البعض أن لغة المسيح الأصلية كانت اللغة اليونانية لأنها كانت اللغة الدارجة المتغلبة في فلسطين وبلاد سورية في ذلك العصر منذ استولى عليها السلوقيون خلفاء الاسكندر ذي القرنين. ولكن من كان له المام بالتاريخ القديم يحكم أن هذا الزعم فاسد لاصحة له. إذ يعلم أن اللغة التي تكلم بها المسيح (أي اللغة الدارجة في أورشليم وسائر بلاد فلسطين في زمان المسيح) لم تكن اليونانية ولاالعبرانية لكن السريانية، التي يقال لها أيضاً الآرامية، وإنما تسمى هذه اللغة في بعض الكتب عبرانية لأنها كانت لغة العبرانيين كما نلمس ذلك في أسفار العهد الجديد نفسه الذي فيه تسمى لغة أورشليم وسائر فلسطين في زمان المسيح عبرانية، مما يشهد على أن المراد بالعبرانية في تلك المواضع هو اللغة السريانية، كما هو الأمر مثلاً (يوحنا ١٩: ١٢ و ١٧) حيث تجد ألفاظاً سريانية موردة بصحتها تحت التسمية العبرانية.

وقد كانت اللغات السريانية والعبرية والرومانية واليونانية معروفة كلها في أيام المسيح، ودليل ذلك أن بيلاطس، لكي يفهم عامة الشعب من وطنيين وأغراب، كتب علة المسيح على صليبه بثلاث لغات.

والمرجح أن يكون المسيح قد ألم بتلك اللغات جميعاً.. كأن يحاور بيلاطس والحكام الرومان بلغتهم ويجادل علماء اليهود بالعبرية القديمة ويخاطب عامة الشعب بالسريانية.

وللوقوف على لغة المسيح اليومية التي بها صلى وحاور ووعظ الشعب، علينا أن نعرف أولاً لغة فلسطين في ذلك الزمن، حيث أجمع المؤرخون على أن اليهود بعد أن قضوا مدة طويلة في بابل، أثر السبي المعروف، نسوا لغتهم العبرانية، وأصبحت لغتهم إبان عودتهم إلى الوطن حتى أيام المسيح وبعده، السريانية.

فمؤرخهم الشهير يوسيفوس الذي عاش في القرن الأول للمسيح يعلن بصريح القول في كتابه (الحروب اليهودية): (هذا مادعاني أن أكتب باليونانية إرضاء للشعوب الخاضعة للملكة الرومانية ماكتبته أولاً بلغتي الطبيعية حتى يطلع عليه باقي الأمم)، ولغته الطبيعية آنئذ لم تكن، بطبيعة الحال، سوى السريانية.

وفي مقالة قيمة يورد بها الكاتب عدداً من الآراء حول هذا الموضوع نورد بعضها.

يقول يوحنا دوسيوس في شرحه للألفاظ العبرية الواردة في العهد الجديد (إنني عنونت هذا الكتاب بالألفاظ العبرية، لكن ذلك على سبيل التوسع، لأن أكثر الألفاظ سريانية محضة) إلى أن يضيف: (وأعلم أن اللغة السريانية تدعى عبرية أيضاً لأنها كانت اللغة المستعملة في اليهودية أيام المسيح والرسل).

وعندما يأتي القس يوسف حبيقة البسكنتاوي في مؤلفه (دوائر السريانية في لبنان وسورية) على ذكر اللغة العبرانية أيام المسيح يقول: «وقد سميت بالعبرانية لأنه بها تكلم العبرانيون وكتبوها بأحرف عبرانية مع أنها كلدانية سريانية.. وبها تكلم المسيح مبشراً، منذراً، ورسم الأسرار، وعلم رسله البررة.. وبها سطر متى البشير إنجيله والإناء المصطفى (أي بولس) رسالته إلى العبرانيين»[1].

ويصرح الدكتور فيليب حتى في مؤلفه (اللغات السامية المحكية في سورية ولبنان) بأن السريانية في سالف الأزمان كانت اللغة اليومية لسائر أبناء الجزيرة وسورية وفلسطين وبعض آسيا الصغرى وبلاد فارس ومصر.. (وهي التي نطق بها المسيح واليهود في سورية ومصر.. وكان هؤلاء يكتبونها بالأحرف العبرانية).

ويتابع د. حتى القول «ولنا على سبيل التعميم أن نقول: إن الآرامية كانت لغة أبناء البلاد في ذلك الوقت (أي في أواسط الألف الثاني قبل المسيح) حتى بعد الفتح العربي إلى القرن السابع بعد المسيح. والآرامية كانت لغة اليهود في فلسطين بعد رجوعهم من السبي ولغة المسيح نفسه»[2].

---

(١) ـ توما الخوري: لغة المسيح المجلة البطريركية ـ دمشق العدد الثالث عشر تشرين الثاني ١٩٦٣ ص١٧ .

(٢) ـ د. فيليب حتى: اللغات السامية المحكية في سورية ولبنان ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦١ ص٣٩ .

وإذا تركنا جانباً شهادات المؤرخين العديدة، قديمة وحديثة، التي تقول كلها بسريانية لغة المسيح، وعدنا نتحرى الوقائع التاريخية عن كثب، أي في مصدريها الأولين: العهد القديم والجديد، تبينت لنا جلية هذه الحقيقة الكاملة. فالمعروف أن أسفار طوبيا، ويهوديث، وابن شيراخ، والترجومات (أي ترجمات أسفار العهد القديم) وجانباً عظيماً من التلمود، وكذلك أقدم الصلوات التي كان يستعملها اليهود، بالإضافة إلى الرسائل التي حررها معلم الناموس الأكبر غملائيل لأهل الجليل، حول تعيين استهلال الهلال، كلها جاءت باللغة السريانية التامة.

ويمكن إيراد دليل آخر على سريانية تلك اللغة وهو ورود اعلام الذكور والإناث من اليهود أنفسهم في زمن المسيح بالسريانية مثل.. متى، توما، قيافا، سيلا، سالومي، شفيرا، طابيتا، ومرتا وغيرها. وكذلك كل مابدأ بكلمة (بر) السريانية التي تقابلها بالعربية والعبرية كلمة (ابن) أمثال: برأبا، برتلماي، بريشوع، برنابا، بريونا، برطيما، برسابا.. حتى أن لقب المسيح نفسه (مشيحا) المترجم باليونانية (خريستوس) وباللاتينية (كرنيوس) سرياني الأصل. ناهيك عن أسماء الأعلام بالأماكن العامة في أورشليم التي ورد أغلبها بهذه اللغة، مثل: (شيلوحا) وتعني مرسل و(كغولتا) وتعني الجمجمة، و(غفيفتا) أي رصيف الحجارة، و(جسمانية) أي معصرة الزيت، و(بيت عينا) أي بيت الارتباك، و(بيت حسدا) أي بيت الرحمة.. الخ.

وإذا أوغلنا في بحثنا نرى أن ثمة ألفاظ وتعابير كثيرة في العهد الجديد تبين أن لغة أهل فلسطين في عهد المسيح كانت سريانية محضة أمثال: (رابي) ومعناها ربي أو سيدي، ولفظة (ساطان) أي شيطان التي أبقاها اليونان على لفظها السرياني. وكلمة (آمين) التي رددها المسيح ستا وعشرين مرة ومعناها الحق. وكلمة (رقا) أي بليد، و(جيهانا) أي جهنم، و(اتفتح) أي انفتح، و(إيلي ايلي لما شبقتني) وتفسيرها (إلهي إلهي لما تركتني) و(طبيثا قومي) أي، ياصبية قومي، و(ماران آثا) أي ربنا يأتي، التي استعملها الرسول بولص في رسالته اليونانية إلى أهل كورنتس. ولما أراد المسيح أن يلقب سمعان بيطرس سماه (كيفا) بالسريانية لا (ابن) بالعبرية أو (نبرس) باليونانية، كما يشاع.

ونختم الحديث بالقول إن الآرامية تسلطت على الفكر السامي مدة تزيد على الألف سنة، وقد كانت من وسائل التعبير الهامة في الحضارة السورية.

عظمة اللغة الآرامية

في الرجوع إلى التاريخ. وإلى نهاية القرن السابع قبل الميلاد نرى الآرامية كانت لغة سياسية ودولية. وقد اكتشف في سقارة بمصر السفلى ورق بردى مكتوب بالآرامية هو عبارة عن رسالة موجهة لفرعون مصر من ملك آدون، إحدى المدن الفينيقية، ومع أن لغة هذا الملك كانت الفينيقية فإنه كتب للعامل المصري بالآرامية مما يدل على وجود كتاب آراميين في بلاطه.

ومع كل النفوذ الذي كان للغة الأكادية فقد تلاشى حين حلت الآرامية محلها. ولما استولى كورش الفارسي عام ٥٣٩ ق.م على بابل وعلى مملكة الكلدان القديمة كلها، اندفعت الآرامية إلى الصف الأمامي فأصبحت اللغة الرسمية اللامبراطورية الجديدة التي كانت تمتد في عهد داريوس الأول من النيل حتى الأندوس. وقد قسمت هذه الإمبراطورية إلى مقاطعات مرتبطة بالسلطة المركزية بتنظيمات إدارية قوية، فكان من الضروري لهذه التنظيمات التي تضم بلاداً كثيرة وشعوباً ولغات مختلفة أن تكون لها لغة دولية موحدة تسهل العلاقات السياسية والتجارية والثقافية، ويمكن لمس ذلك إبان الإمبراطورية الاخيمنية حيث كان لها الدول الأول.

انتشار اللغة الآرامية

كان انتشار اللغة الآرامية كبيراً وهذا ماجعل منها لغة دولية، ولذلك حين فتح قورش بابل في سنة ٦٣٩ وهوت الإمبراطورية الكلدية، أصبحت لغة آرام لغة رسمية للإمبراطورية الفارسية التي امتدت في عهد داريوس (٥٢١ ـ ٤٨٥) من ضفاف النيل إلى ضفاف الهندوس تحت إدارة مركزية إمبراطورية. كما أن نقوش العملة المسكوكة في هذه البلاد من قبل أصحاب المرزبانات الذين كانوا يحكمون باسم الملك الكبير مكتوبة بالآرامية، وكانت اللغة المستعملة في مراسلات الدولة وكتابة المراسيم الملكية.

وضمت دولة فارس (شعوباً وأمماً وألسنة) ـ كما جاء في كتاب دانيال ـ ولزم أن تكون هناك لغة دولية لم تمحُ اللغات المكانية كالإيرانية في فارس،

والأكادية في بلاد مابين النهرين، والفينيقية في فينيقية، والعبرية في مملكة يهوذا، والمصرية في مصر، ولكنها أضيفت فوقها كما حدث للإنجليزية في دول الاتحاد البريطاني حيث الظاهرة الكبرى كانت في الهند التي لم يتفاهم سكان أرجائها الواسعة بألسنتهم العديدة بل باللغة الانجليزية.

وكان العالم (كليرمون جانو) أول من برهن على هذا الواقع، إذ اكتشف سطرين على قطعة ممزقة من البردي دعُيت (بردى تورينو)، وفي السطرين اسم المرسل باخيم المصري إلى المرسل إليه ميتراوّ اهيست الموظف الفارسي. وقد جاء في نتيجة أبحاثه المنشورة في مجلة الآثار: (جميع دواوين الحكام والوزارات في الإمبراطورية الفارسية، وخاصة في المقاطعات الغربية، كانت آرامية. وكذلك الدواوين ونقوش العملة في تلك المقاطعات والوثائق الرسمية والأوامر الملكية) وقد دلت قطعة البردى المصرية سالفة الذكر أن ذلك ينطبق أيضاً على مصر[1].

كما كانت بابل تملك لوحات للمحاسبات بكتابة آرامية آتية من بابل وأوروك وخاصة من نيبور. أما في آسيا الصغرى فقد وجدت نقوش آرامية كثيرة عدا المنقوش منها على العملة المسكوكة، كذلك الحال في أفغانستان والهند حيث اقتبس أهلها كتابتهم المسماة (خاروستي). وكذلك وجدت الآثار الدالة على عالمية الآرامية في شمال جزيرة العرب، منها أربعة في تيماء، أحدها في متحف اللوفر، وثلاثة في حجر، وأخرى في إيلات، وفي فلسطين الشمالية (السامرة) والجنوبية.

لقد كانت الآرامية في الجليل والسامرة لغة الشعب، أما في منطقة يهوذا فقد أخذت تحل محل العبرية شيئاً فشيئاً حتى باتت العبرية لغة الليتورجية والبحث الديني.

الآرامية الفلسطينية ـــ السريانية

تعرضت اللغة الآرامية الفلسطينية ـ السريانية إلى اضطهاد ممن تعاقب عليها من حكومات وغزوات أجنبية، بحيث لم يبق إلا النذر اليسير من شواهدها، عدا اللغة والآداب السريانية. وأما سبب هذا الأمر الغريب فهو أن النحس الذي تتبع

(١) ـ الشيخ نسيب وهيبه الخازن: من الساميين إلى العرب دار مكتبة الحياة ـ بيروت ص٨٤ .

اللغة الآرامية الفلسطينية جزئياً قبل النصرانية تعقبها كلياً بعد النصرانية. فقد فُقد من الكتب المخطوطة بتلك اللغة قبل النصرانية قصة طوبيا وكتاب يشوع بن سيراخ وسفر يهوديث وتتمة أستير وقصة سوسنة وسفر المقابين الأول وباروخ وتواريخ يوسف المؤرخ المشهور.. إلى غير ذلك مما لايمكن احصاؤه.

والغريب أن الزمان الذي أباد بعض الآثار الآرامية الفلسطينية قبل المسيح أبادها كلها بعد المسيح، مع ما نعلمه من المصائب الغريبة التي حلت بتلك البلاد.

ومما لاجواب عليه في هذا الصدد معرفة كيف كان حالا الأدب والعلم في فلسطين عند اليهود بعد تنصرهم أو قبله، وبأي نوع من الخط كانوا يكتبون، وفي أي زمان كفوا تماماً أن يتكلموا بلغتهم السريانية، وفي أي قرن من القرون صار حظهم شبيهاً بالخط السطرنجيلي الذي يشاهد في كتبهم القليلة المحفوظة إلى اليوم، المخطوطة في القرن الحادي عشر ومابعده.. كل ذلك أبقى أسئلة لازالت قائمة حول السريانية الأولى؟

وقد أجاب عن بعض هذه الأسئلة أحد الباحثين[1] مشيراً إلى أن الأساطير السريانية اليهودية المكتوبة في فلسطين في عهد النصرانية تعتبر من الأشياء الزهيدة وهي لم تعرف إلا من نحو بدايات القرن الثامن عشر، إذ كان إلى ذلك اليوم خفياً في الزوايا المهجورة، وهو عبارة عن كتاب واحد يحوي قريانات الأناجيل مفرقة على مدار السنة حسب طقس الروم ـ أي الكنيسة القسطنطينية، وصفحات شتى متفرقة مفصول بعضها عن بعض تحوي شيئاً من قريانات الأناجيل ومن قريانات العهد القديم ومن المزامير ومن القوانين العبدية ومن قصص بعض القديسين.. كل ذلك لأجل استعمال الروم الملكيين، وهي كلها مؤلفة باللسان السرياني المختص باليهود الذي يقال له الكلداني والفلسطيني، ومخطوطة بالخط السرياني المختص بذلك القوم وهو مأخوذ من الخط السطرنجيلي ومنه انبثق الخط العربي.

ويستنتج من الكتب اليهودية النصرانية أن اللغة السريانية التي كانت شائعة في أورشليم وسائر فلسطين في زمان المسيح بقيت متداولة فيها بعد المسيح في

---

(١) ـ يوسف داود: كتاب القصارى في حل ثلاث مسائل تاريخية تتعلق ببلاد الشام ومايجاورها المطبعة الأدبية ـ بيروت ١٨٨٧ ص ١٢ .

عهد النصرانية مدة أكثر من سبعة قرون، إذ لو لم تكن تلك اللغة متداولة لما كتبت فيها تلك الكتب التي كانت لأجل استعمال البيعة. كما يستنتج أن تلك اللغة كان لها كتابة وأدب في النصرانية مثلما كان لها قبلها وبعدها خارجاً عنها. ويلاحظ أن أهل فلسطين، سواء أكانوا موسويين أو مسيحيين لم يشاركوا سريان الجزيرة وبقية البلاد السريانية في تقلبات اللسان السرياني. ونرى أنه في استعمال اللغة السريانية اليهودية كان كل فريق من الموسويين والمسيحيين في فلسطين يسلك منهاجاً لنفسه بمعزل عن الفريق الآخر، فالخط مثلاً، لدى المسيحيين، كان مختلفاً عما كان لدى اليهود، على الأقل في القرون المتأخرة. وإن الترجمة السريانية للكتاب المقدس التي يقال لها (البسيطة) لم يستعملها المسيحيون الذين عاشوا في فلسطين كما كان يستعملها بقية المسيحيين السريانيين حتى الملكيون، ذلك أن أسفار الكتاب المقدس في الكتب الفلسطينية التي تحدثنا عنها قد استخرجت كلها من اليوناني رأساً حتى سفر المزامير. ولو أن البعض يذهب إلى أن المترجم وضع أمام عينيه الترجمة البسيطة المذكورة. وأخيراً فإن اللغة السريانية الفلسطينية كانت مستعملة في كنائس الملة الملكية بفلسطين حتى بعد انقراض هذه اللغة من أفواه الناس العوام وإحلال العربية مكانها، لأن حواشي الكتب الطقسية المذكورة هي مكتوبة بلغة الضاد.

ويمكن إجمال ماقلناه في أن اللغة اليونانية لم تكن في زمان المسيح هي اللغة الشائعة في أورشليم أو المتسلطة أو المتغلبة فيها. هذا خلاف أن الدين المسيحي نشأ خارجاً من الدائرة اليونانية، وأن مبادئ البيعة النصرانية لم تكن نصرانية أصلاً، لأن منشئها لم يكن يونانياً، لاوطناً ولاجنساً ولالغة، ولم يكن أحد من أتباعه الأولين يونانياً، وكذلك لم يكن أحد من رسله والمنذرين بدعوته يونانياً، واتباع هؤلاء الأولون لم يكونوا يونانيين بالبتة. وأما اللغة الإصطلاحية المستعملة في البيعة المسيحية فلم يدخلها كلمة يونانية في أصل وضعها.

وإن وجد اليوم في هذه اللغة ألفاظ يونانية فهي زهيدة طفيفة جداً وذلك بواسطة اللغة السريانية نفسها التي كانت قد دخلت فيها الألفاظ اليونانية منذ زمان تملك اليونانيين السلوقين على بلاد الشام، وهي الألفاظ الموجودة في أكثر لغات العالم القديم، منها مايتعلق بالأمتعة الجديدة وما أشبه: زنار، قسط، أوقية، إيقونة، اسكيم، درهم، مينا، فندق. ومنها مايتعلق بالديانة النصرانية: إنجيل،

هرطقة، أسقف، مطران، طقس، طغمة... أو مايتعلق بالعلوم، وهذه لم تعرب إلا حينما أخذ العرب في خلافة العباسيين بالعراق يتفرغون للعلوم اليونانية على يد علماء السريان فدخلت في اللغة العربية الألفاظ الإصطلاحية العلمية التي وصلت إلى كل اللغات الحديثة، ونرى كلمات فلسفة، جغرافيا، سفسطي، دوسنطريا، باسيليق، اقليم وأمثالها، إنما دخلت في العربية لكونها موجودة في السريانية، لأنك لاتجد لفظة يونانية في العربية إلا وهي موجودة في السريانية، ودخلت في العربية لاكأنها يونانية بل كأنها سريانية، فهي لم تدخل في العربية من اليونانية رأساً، لكن عبر اللغة السريانية، كما تقدم القول. وعلى هذا يمكن أن نعدها مع الألفاظ التي دخلت من اللغة السريانية إلى العربية، كما مر معنا.

ومن الملاحظ أن العرب يلفظون الكلمات اليونانية المعربة، كما يلفظها السريان، لاكما يلفظها اليونانيون، كما هو الحال في كلمات: أفلاطون، سقراطيس، إقليم، فندق، طقس.

والجدير بالذكر أن العرب سموا اليونان بالاسم السرياني كما سمعوه في سورية، لا بالاسم اليوناني هليس. والأمر في الألفاظ اليونانية المعربة يشمل أيضاً الألفاظ اللاتينية، مثل دينار، بلاط، قلاية، طبلة.

ومما أوردناه نرى أن العرب لم يستعيروا الألفاظ الأعجمية التي نحن في صددها إلا من لغة الأقوام الذين اختلطوا بهم وهم أهل الشام، ولم تحدث استعارة هذه الألفاظ إلا في الأزمان التابعة لظهور النصرانية كما هو واضح. وهذا يؤكد أن الأقوام الذين اختلط بهم العرب في سورية، في الأزمان التابعة لظهور النصرانية، كانت لغتهم الشائعة السريانية، التي سادت المنطقة.

توحد الآرامية بالسريانية

نتيجة للظروف والأوضاع التي مرت على المنطقة كان للثقافة دوراً كبيراً، وهذا ماوحّد السريان وميزهم عن الشعوب المجاورة.

إن تعريف السريان الذي جاء في أحد المراجع يفي لمعرفة توحد الآرامية بالسريانية، حيث أن السرياني يعني الآرامي النصراني. ومن تكلم السريانية هم من تخلق بأخلاق السريان وتأدب بآدابهم.. (أعلم أن السريان لم يكونوا من قديم

الزمان يسمون بهذا الاسم لكنهم كانوا يسمون قديماً آراميين، سواء كانوا شرقيين أم غربيين نسبة إلى جدهم آرام بن سام بن نوح، وإنما سماهم بهذا الاسم أولاً اليونانيون وذلك بعد استيلاء ملوك آثور على الديار الشامية. ولفظة السرياني على رأي أغلب العلماء المحققين متأتية من لفظة الآثوري محرّفة بعض التحريف طبقاً لطبع اللغة اليونانية. وهذه التسمية دخلت أولاً على سكان بلاد الشام ثم نحو أواسط الجيل الأول للمسيح دخلت أيضاً على سكان مابين النهرين واثور وبابل على يد الرسل الشاميين الذين تلمذوا هذه البلاد وأقبلوا بها إلى الديانة النصرانية. فأجدادنا الأولون لحبهم الشديد للإيمان ولتمسكهم الوثيق بُعرى الدين الحق تركوا بنوع من الإفراط مع الوثنية حتى اسمهم القديم وتسموا باسم السريانيين نسبة إلى الرسل الذين بشروهم وتمييزاً لهم من بني جنسهم الآراميين الذين لم يكونوا بعد قد اعتنقوا الديانة المسيحية ولذلك أضحت لفظة الآرامي مرادفة للفظة الصابئ والوثني ولفظة السرياني مرادفة للفظة النصراني والمسيحي)[1].

وعلى ذلك أصبحت الثقافة هي العنصر الأساسي الذي وحد السريان وميزهم عن الشعوب المجاورة، ويقصد بالثقافة هنا ذلك المفهوم الخاص، الذي كان يعنى في ذلك الحين الخصوصية الدينية، حيث أن الثقافة كانت تحتوي على المؤلفات الدينية بالدرجة الأولى، ومن هنا يأتي تقاربهما إلى درجة التطابق والتداخل. فالمسيحية انتشرت بسرعة كبيرة في القرون الأولى من العصر الجديد، ولاسيما في سورية التي اعتنقت هذا الدين الجديد بصورة فورية. وقد كانت الدعوة المسيحية والمواعظ والكرازات تلقى منذ البداية باللغة الآرامية مما جعل المسيحية تنتشر أكثر فأكثر في الأوساط الشعبية. وبما أن عدداً هائلاً من النصوص المسيحية قد دوّن بالآرامية السريانية، فقد منحها ذلك شهرة عظيمة وأكسبها عمقاً ورسوخاً لايضاهى، حيث تطورت الآرامية السريانية إلى لغة مزدهرة عظم شأنها بعد أن أصبحت لغة الدين والآداب المسيحية المختلفة. وفي الوقت نفسه لعبت اللغة المذكورة بتحولها إلى لغة كتابية دينية رسمية دوراً عظيماً في رفع المستوى الثقافي وفي تثبيت الوحدة الاثنية لهذا الشعب.

---

(١) ـ قاموس كلداني عربي، المطران الدكتور روفائيل بيداويد، أعاد طبعه مع ملحق جديد منشورات مركز بابل ـ بيروت ١٩٧٥ ص٤٨٧ و ٤٨٨ .

وترى (نينا بيغوليفسكايا) أن هناك وضعاً غير واضح ويتميز بتعقيد كبير نتيجة التأثير المتبادل بين مجموعة من العوامل.. الأثنية واللغوية والسياسية والايديولوجية (الدينية) التي لعبت أدواراً مهمة ومتشابكة في ارتقاء الكتابة السريانية ونموها. فقد كان السريان يكتبون على نمطين أو نموذجين، هما النموذج السرياني (اليعقوبي) والنموذج السرياني (النسطوري) اللذان تكوّنا نتيجة للصراع الكنسي ـ المذهبي الحاصل في القرن الخامس الميلادي، عندما تفرع عن المسيحية الأرثوذكسية، أولاً النساطرة، ثم تلاهم المنفستيون. ولم تكن اللهجات الخاصة، ولا المنشأ الاقليمي للنص السرياني هي الأساسية في استعماله وفق هذا النموذج أو ذاك، وإنما الانتماء المذهبي لواضع النص ومؤلفه كان العامل الحاسم في ذلك التمييز والفصل. وكانت السريانية في البداية تعود إلى التوزع الجغرافي للسريان في الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية الباريثين، فانقسمت هذه اللغة من حيث اللفظ والخط إلى سريانية شرقية يتكلمها ويكتبها السريان المستوطنون في البلدان الواقعة تحت الهيمنة البارتية (الفارسية) ومنها امتدت إلى الشرق الأقصى مثل الصين والهند، أما السريانية الغربية فهي لغة السريان المستوطنين في البلدان التي كانت تحت الهيمنة الرومانية ونعني بها بلدان سورية وفلسطين وآسيا الصغرى[١].

لقد ذهب الكثير من المؤرخين، ومنهم المستشرق الكبير (غويدي) إلى أن الجزء الأسفل من نهر الفرات، هو المهد الأول للساميين[٢]، فلا غرو إذا ماكان هذا الجزء بالذات هو المهد الأول للثقافة العالمية أيضاً. وقد أخبرنا العلامة ابن العبري بأنه في عهد ناحور جد ابراهيم، نقلت كتب الكلدانيين وعلومهم إلى مصر[٣]. وكان معظم سكان هذا الجزء من الآراميين، من قديم الزمان، وكان الفرس في الإمبراطورية الآشورية يفضلون اللغة السريانية الآرامية، التي تكلمها معظم السكان[٤]. وعدت وقتئذ لغة الثقافة حتى بين الأشراف من العرب، بل ظلت لمدة من الزمن اللغة الأدبية للعرب المجاورين لآرام، كما حلت محل اللغتين العربية

---

(١) ـ نينا بيغوليفسكايا: ثقافة السريان في القرون الوسطى ترجمة د. خلف الجراد دار الحصاد للنشر ـ دمشق ـ مرجع سابق ص ٢٢ .

(٢) ـ محمد عطية الابراشي: الآداب السامية ـ القاهرة ١٩٤٩ ص ١٦ .

(٣) ـ تاريخ الأزمان أو المدني بالسريانية ص ١٠ .

(٤) ـ محمد عطية الابراشي مصدر سابق ص ٤٣ و ٤٤ .

والاغريقية في كثير من الأقاليم[1]. وفي عهد الإمبراطورية الرومانية في الشرق، كانت هذه أهم لغة بعد الاغريقية، كما احتلت مكان الصدارة في عصر ملوك الفرس كوسيلة للتهذيب والتثقيف والتأدب[2] وظلت لغة حية كثيرة الانتشار إلى القرن الثامن للميلاد، لأنها كانت لغة طلية، غنية بالتعبير عن خلجات النفس وتصوير انعقافات الوجدان، زادها احتكاكها باليونانية وبالعربية أصالة ومرونة، مما جعلها توسع أغراضها فتتطرق إلى سائر المعارف البشرية بيسر وطلاقة وعمق.

الكتابة السريانية

ظهرت الكتابة السريانية القائمة على الأحرف المتصلة لدى السريان قبل المسيحية، الأمر الذي تؤكده المخطوطات المسيحية التي تعود إلى سنة ٤١١ م المحفوظة في المتحف البريطاني، وكذلك المخطوطات المكتوبة سنة ٤٦٢ م والموجودة في المكتبة الحكومية العامة في مدينة ليننغراد الروسية[3].

وتتألف الأبجدية السريانية، مثلها بقية صيغ الكتابة الآرامية، من اثنين وعشرين حرفاً، تعطي أصواتاً أو منطوقات ساكنة فقط. وقد بدأ السريان بتحريك هذه الأحرف (الأصوات) الساكنة من خلال استخدام التنقيط أول الأمر فوق السطر وتحته.

وتتضمن أقدم النصوص السريانية علامات مد وحركات نقطية الشكل، تم تعديلها وتطويرها واستكمالها على مدى عدة قرون متتالية.

وعندما حصلت الانقسامات الطائفية المذهبية المعروفة، انعكست تلك الانقسامات على السريانية مباشرة، إذ أدى الانعزال والانفصال، الذي سببته تلك الانقسامات والصراعات إلى محاولة كل فئة منهما: الغربية والشرقية إلى تطوير لغتها السريانية حسب ظروفها الجغرافية والديموغرافية، وحسب احتياجاتها الدينية والأدبية والتاريخية والفلسفية. وأخذت هذه الاختلافات اللفظية والكتابية تتبلور

---

(١) ـ محمد عطية الابراشي مصدر سابق ص ٤٥ و ٤٧ .
(٢) ـ محمد عطية الابراشي مصدر سابق ص ٦١ .
(٣) ـ نينا بيغوليفسكايا مصدر سابق ص ٥٦ .

عملياً منذ نهاية القرن السادس الميلادي، مع أن المخزون المعجمي للغة السريانية الفصحى بقي دون تغيير كبير.

وتم ضبط حركات الأبجدية السريانية تدريجياً من قبل السريان المختصين بالأدب وبالقواعد والنحو، فأوجدوا بذلك قواعد واضحة للقراءة الصحيحة. وعن طريق استيعاب هذه القواعد والتقيد بها أوجدوا الظروف النحوية الملائمة لابداع نصوص جديدة. بينما نجد أن الكتابة البهلوية على نقيض من ذلك متغايرة التراكيب النحوية، معقدة التصريفات، وتفتقر إلى الصوتيات وأحرف المد. وكل هذه السمات جعلت الكهنة الزرادشتيين يلجؤون إلى دراسة كتبهم وحفظها عن ظهر قلب، ولم يستخدموا القواعد النحوية إلا قليلاً، معتمدين بدلاً من ذلك على حفظ الكلمات والجمل كما تنطق[١].

ومن السهل تعلم الكتابة السريانية بفضل أبجديتها السهلة ونظام الحركات للنص وخصائص تركيب الجمل السريانية، وهذا ماساعد في انتشار هذه اللغة بشقيها اللفظي - النطقي والكتابي في مناطق واسعة من قارة آسيا.

لقد استطاعت الكتابة والقراءة والتقاليد المدرسية المتوارثة أن تيسر استيعاب اللغة السريانية، وتساعد على استخدامها كلغة عالمية لعبت دور الوسيط الفعال مابين الغرب الاغريقي اللاتيني والشرق العربي الفارسي. فقد لجأ كلا الطرفين.. الغرب والشرق، إلى عون السريان كنقلة علوم ومعارف ومترجمين، لهذا أصبح السريان أعضاء بعثات دبلوماسية ووفود أرسلت إلى بيزنطة.

ويؤكد يوسف داود أن كون الكتابة اليونانية أصلها من السريانيين هو أمر تاريخي مؤكد لايحتمل أدنى ريب، وقد أجمع عليه العلماء. وأدلة ذلك ظاهرة واضحة تماماً.. (فالقلم اليوناني والقلم الفوني[*] أو السرياني القديم يتشابهان في صور الحروف كل الشبه. ثانياً أسماء الحروف لدى اليونانيين هي سريانية. ثالثاً صف الحروف ونظامها في الأبجدية اليونانية هو كما في الأبجدية السريانية مع اختلاف يسير طرأ على الأبجدية اليونانية في مرور الزمان لسبب اختلاف طبع اللغة اليونانية من طبع اللغات السامية التي السريانية واحدة منها، رابعاً قوة

---

(١) ـ نينا بيغوليفسكايا مصدر سابق ص ٥٦ .

(*) عنى الكاتب بهذه الكلمة.. الفينيقيين.

الحروف اليونانية في حساب الجمل هو كما في السريانية من دون أدنى اختلاف، حتى أن حرفين سريانيين سقطا من الأبجدية اليونانية لهما صورتان سريانينان في حساب الجمل اليوناني وهما الواو و القوف. أما إن اليونانيين يكتبون من اليسار إلى اليمين مع أن السريانيين يكتبون من اليمين إلى اليسار فلا أشكال فيه، فإن اليونانيين أيضاً كانوا قديماً يكتبون من اليمين إلى اليسار[١].

ويمكن توضيح ماذكرناه من أن اليونانيين تعلموا الكتابة من مجموعة فينيقية قدمت إليهم من الجهة الغربية لبلاد الشام (لبنان) في القرن السادس عشر قبل المسيح بقيادة رجل اسمه (قَدْما) ـ ويعني الاسم بالسريانية الأول ـ وفي ذلك لايمكن الجزم من أن الفينيقيين هم الذين اخترعوا صناعة الكتابة، كما استنتج بعض المؤرخين في أن نقل الكتابة من مكان إلى مكان وتعليمها للآخرين هو شيء واختراعها هو شيء آخر.

ويجمع بعض المؤرخين الأوروبيين على أن صناعة الكتابة التي تعلمها اليونانيون وسائر الأمم المتمدنة القديمة والحديثة لم يحدث اختراعها إلا في إحدى تفرعات الأمة السامية، حيث المرجح أن السريان الشرقيين هم الذين سبقوا في العمران والتمدن سائر فروع الأمم السامية وفاقوا عليهم جميعاً، إن لم نقل على سائر أمم العالم القديمة، وهو الأرجح.

ومما لاشك فيه أن الذين جلبوا صناعة الكتابة إلى اليونانيين وعلموهم إياها هم من السريان، ولو أن اليونانيين سموهم فينيقيين، إذ أنهم، أي اليونانيين لم يكونوا يعرفون من السريان إلا الفينيقيين الذين كانوا سكان الشاطئ السوري وذلك لكثرة رحلاتهم وأسفارهم في البحر، والذين كان يقال لهم شوام أي سوريين. والدليل القاطع على ذلك، اي على أن الذين علموا اليونانيين صناعة الكتابة، كانوا سريان، هو أن أسماء الحروف كما تعلمها اليونانيون من ذلك القوم هي سريانية، إذ أن أغلبها موصوم بألف الإطلاق، وتلك عادة لاتوجد إلا في اللغة السريانية من بين جميع الشعوب السامية.

---

(١) ـ يوسف داود مرجع سابق ص٢٩ .

تداخل اللغة السريانية في العربية

من البراهين التي تؤكد أن السريانية كانت لغة سورية هو وجودها إلى الآن في ثلاث قرى سورية، اثنتان منها أهاليها من المسلمين (جبعدين وبخعا) وقرية معلولا التي بها من الديانتين المسيحية والإسلامية.

ومن المعلوم أن العرب الشماليين لم يكونوا سابقاً يقرأون ولايكتبون لغتهم حتى تعلموا صناعة الكتابة في القرن الخامس أو السادس بعد المسيح من السريان، ويتضح ذلك من عدة أمور، منها صور الحروف العربية كما هي في الخط الذي استعلموه أولاً وهو الذي يقال له الكوفي، إذ هي شبيهة بصور الحروف السريانية غاية الشبه، وكذلك من ترتيب الحروف العربية الذي يقال فيه أبجد هوز... الخ، إذ هو نفس ترتيب الحروف العربية، وأيضاً من القوة العددية التي للحروف العربية في حساب الجمل، فهي متشابهة تماماً مع السريانية، وكذلك من أسماء أكثر الحروف. فأحرف أ، ج، د، ز، ش، ص، ف، ق، ك، ل، م، ن، هـ، كلها سريانية.

ومن هذه الأسماء السريانية أربعة رخمها العرب بجزم حرف من أواخرها وهي الجيم والدال والصاد واللام بدل جيمل، ودالث، وصادي، ولامذ.

ويتبين ذلك من أن كل حرفين يلفظان من مخرج واحد لهما صورة واحدة، وكذلك الدال والذال، والصاد والضاد، والطاء والظاء، والعين والغين.. كل ذلك على نسق الخط السرياني.

ومن المعلوم أن التنقيط في الخط العربي هو لتمييز اللفظ الواحد عن الآخر، وهو أمر حديث نسبياً.

وللتأكد من أصل الخط العربي هو من السرياني يمكن التعرف إلى ذلك من أن كل الحروف المفصولة في العربية أي التي واحد منها يكتب مفصولاً عما بعده هي كذلك مفصولة في الخط السرياني، فالألف والدال والراء والزاي والواو تكتب مفصولة في كلتا اللغتين العربية والسريانية.

كما أن من الأدلة القاطعة على أن الكتابة العربية هي في الأصل سريانية، حذف الألف إذا جاءت حرف مد في حشو الكلمة.

وتلك قاعدة مطردة في الكتابة السريانية، وكان ذلك شائعاً كثيراً في مبادئ الكتابة العربية كما تشهد مصاحف القرآن القديمة، إذ يكتب فيها بلا ألف: ابرهيم، اسرئيل، اسمعيل، الرحمان، الخسرون، الشكرون، الظلمون، الصالحت، المسلمت، الدهقين، المسجد، الملئكة، ثلث، ثلثون، ثمينة.. إلى غير ذلك مما لايحصى، بدل ابراهيم، اسرائيل، اسماعيل، الرحمن، الخاسرون، الشاكرون، الظالمون، الصالحات، المسلمات، الدهاقين، المساجد، الملائكة، ثلاث، ثلاثون، ثمانية.. كل ذلك تبعاً للغة السريانية التي فيها تكتب هذه الكلمات وأمثالها بلا ألف.

وهذا الشكل معروف كثيراً في الكتابة العربية إلى اليوم، ومنه ماهو واجب.. مثل: هذا وهذي وهؤلاء وذلك وأولئك ولكن والله.. حيث هذه الألفاظ الأخيرة كمثل الأسماء السابقة، توجد هي نفسها في السريانية ويحذف حرف الألف منها حين كتابتها.

ويرى يوسف داود في أفضل بحث نشر حول هذا الموضوع منذ أكثر من مئة سنة، إن العرب تعلموا الكتابة من السوريين الذين هم أقرب السريان إليهم، ولهذا يمكن التأكد من أن سكان سورية كانوا يستعملون اللغة السريانية في نحو القرن الخامس أو السادس الذي بدأ فيه العرب يكتبوا بالخط الكوفي المتولد منه الخط النسخي الدارج اليوم. وقبل الخط الكوفي كان قد اشتهر في اليمن خط آخر منبثق من الخط السرياني وذلك في الدولة المشهورة التي يقال لها الحميرية، ويسمى العلماء الغربيين هذا الخط.. الخط السبإي.

ويتابع يوسف داود: ومن الواضح أنه لو كانت اللغة اليونانية متغلبة في بلاد الشام لكان العرب اتخذوا الكتابة من اليونانيين لامن السريان مثلما اتخذها منهم القبط في بلاد مصر حيث كانت اللغة اليونانية متغلبة. وكذلك الحبشة في نحو ذلك الزمان تعلموا الكتابة من سريان بلاد الشام لامن اليونانيين، إذ أن حروف قلمهم تشبه الحروف السريانية شبهاً شديداً. وكذلك الأرمن كانوا يكتبون قديماً بالقلم السرياني إلى أن قام فيهم إمامهم (مسروب) المشهور واستنبط لهم القلم الذي يستعملونه إلى اليوم. والحاصل أن اليونانيين مع شهرة لغتهم وعلومهم وحذاقتهم في الصنائع العالية لم تتخذ أمة من الأمم الشرقية الكتابة منهم إلا القبط

في مصر، وذلك لأن السريان لم يكونوا في بلاد مصر كما كانوا في بلاد الشام وغيرها. وليس هذا محل بيان الفصل العظيم الجليل الذي أولته الأمة السريانية للعالم بصناعة الكتابة التي هي أساس كل عمران وكل تمدن، فإن الخبير يعلم أن أشرف الأمم القديمة كالعبرانيين واليونانيين واللاتينيين تعلمت الكتابة من الأمة السريانية. ومن اللاتينيين تعلمت الكتابة بقية أمم أوربا كلها إلا قوماً من الصقالبة. وكذلك أمة الفرس المشهورة في التواريخ القديمة وأمة التتر التي يقال لها (ويكور) وغيرهما من الأمم المجاورة اتخذوا الكتابة من السريان. وكثير من العلماء المحققين ذهبوا أن الأقلام المستعملة إلى اليوم عند الأمم الهندية باللغة السنسكريتية والتي عند أهل تيبت وغيرهم من الأمم التي في آسيا المتوسطة أصلها من القلم السرياني[١].

ولايسع المرء وهو يقرأ هذا الكلام سوى الوقوف خاشعاً تجاه لغة سادت العالم، أو خرجت منها لغات لازالت حية، لغة نلمس أحرفها أو كلماتها هنا وهناك ونحن نجول بين بقية اللغات، دون الالتفات إلى أصلها أو معرفة منشئها، وهي لغة الحضارة السورية في أزهى أوقاتها، يوم كانت السريانية هي اللغة السائدة في الكثير من دول العالم.

اللغة السريانية في أسماء المدن والقرى السورية

إن اللغة السريانية حية ولازالت باقية في متداول كلام الناس اليومي من خلال ذكرنا لأماكن وقرى ومدن في معظم أركان سورية الطبيعية، حتى إذا أحصينا ذلك لاتضح لنا أن أكثر من نصف هذه الأسماء هي سريانية بحتة، والنصف الآخر إما عربية أو يونانية أو للغات أخرى.

وإذا ماأراد القارئ الرجوع إلى اللغة السريانية الحالية في ذلك ولم يجد إلى مانشير إليه فإن الكلمة تكون في الغالب مأخوذة من اللغة السريانية القديمة التي يقال لها الكلدانية والتي كانت اللغة العامية في البلاد السورية، لأن هذه اللغة كانت تجمع بزيادة ياء مشددة قبل ألف الإطلاق، مثل القول ملكيّاً وكيفيّاً في

(١) ـ يوسف داود: مرجع سابق ص ٢٧ و ٢٨ .

جمع ملكاً وكيفاً، أو إسقاط التشديد ومد الفتح الذي قبله، كما هو الحال مع تداول أهالي معلولا للغتهم السريانية حيث صحنايا وسلفايا في جع صحنا وسلفا.

الكلمة المتداولة	معناها بالسرياني	الكلمة المتداولة	معناها بالسرياني
بيت لهيّا، بدل بيت الاهيّا	بيت الآلهة	زملكا، بدل زين ملكا	سلاح الملك
دوما	السقف	صحنايا	الأقذار
كفرسوسة	قرية الفرس	داريا	الدور
معرا	المغارة	صيدنايا	الصيداوي
حينه	الحضن	كفرقوق	قرية الأكواز
كفرمشكه	قرية الجلود	معربا	المغرب
حلبون	الخصوبة أو الصفوة	منين	الامنان
عربين	الغرب	حارستا	الصلبة

ومن أماكن أخرى من سورية[1].

الكلمة المتداولة	معناها بالسرياني	الكلمة المتداولة	معناها بالسرياني
حماه	حارة أو حماة	تدمر	عجب
حمص	حمّص	تل تورين	تل الثيران
دير سيتا	دير الكرمه	راشه	رؤوس
سرغايا	سرّاجون	سلقين	صاعدون
سلقين	صاعدون	قنسرين	عش النسور
معر شورين	مغارة الاسوار	كوكبا	كركب

وفي لبنان تكثر أسماء المدن والقرى بالسريانية حيث لم يتم تغيير أو تحديث لها، من ذلك على سبيل المثال:

---

(١) ـ استلت هذه الأسماء من مقال الخوري اسحق ارمله: القرى السريانية في مدن سورية مجلة المشرق ـ بيروت السنة الثامنة والثلاثون ٤٠ .

الكلمة المتداولة	معناها بالسرياني	الكلمة المتداولة م	عناها بالسرياني
بيروت	السرو أو الصنوبر	زحلة	الدبس
فالوغا	القاسم	شنانعير	اسنان الخيط
زغرتا	الصغيرة	درعون	(بدل ترعو) البَويب
شبطين	القضبان	سلفايا	الاردباء
تنورين	التنانير	عميق	العميق
قنسرين	وكر النسور	ريشعَيْتا	راس العين
عينطورا	عين الجبل	عينطورين	عين الجبال
ريشمّيا	راس الماء	كفر قطرا	قرية العقد
عمشيت	مكان البول	علما	الجمهور
معسريتا	المعشرية	قزحيا	الأقزاح
كفر طاب	القرية الجيدة	قطين	الضيق أو الرفيع

وإذا كان لنا أن نذكر هنا بعض الأسماء غير السريانية والعربية مما هي موجودة في المنطقة، فإن أسماء مدن: أنطاكية، اسكندرونة، لاذقية، طرابلس، سبسطية، نابلس، بانياس هي أسماء يونانية، فيما طبرية وقيسرية هي أسماء لاتينية.

ومهما يكن من أمر فإن اللغة اليونانية لم تترك أثراً يذكر في الأسماء التي تخص القرى والأماكن السورية مثلما تركت اللغة السريانية وحتى العربية كأسماء عرطوز، غدير، جبل الشيخ، العاصي.. الخ.

والغريب في الأمر أن أسماء القرى الثلاث التي لازالت تتكلم السريانية في لغتها اليومية في سورية وهي معلولا، جبعدين، بخعا فإن أسمائها عربية.

اللهجة العامية السريانية ـــ العربية

خير شاهد على وجود السريانية في اللهجة العامية العربية في سورية هو من خلال الكم الهائل من الكلمات التي يقولها المرء باللهجة المحلية فيعرفها من يتقن السريانية على الفور، فيما لانلمس أي أثر من اللغة اليونانية في هذه اللهجات.

ومن المعروف أن آثار اللغة السريانية تتجلى في إسكان المتحرك في أول

الكلمة وفي مواضع أخرى، مثل القول: كْبير، صْغير، نْروح، كبْار، وهي خاصية لاتوجد إلا في اللغة السريانية، بل أن لغة عامة دمشق، على وجه التخصيص، مشهورة باستعمالها اسكاناً خاصاً للسان السرياني لايعرفه أهل بقية الأقطار التي تتكلم العربية، وهو أنهم يسكنون الحرف المتحركة بحركة الاختلاس في وسط الكلمة، ونضرب مثلاً على ذلك:

عِلتي، عَمْتَك، كْبيرُه، نْحمْله، زِلْقْطة، حُزمْتك، مُقْدْسي، فستْقي

علّتي، عِمِتّك، كَبيرَهُ، نْحِمِله، زلْقِطة، حُزمِتك، مَقْدَسي، فستقي

كما أن أهالي دمشق، دونهم من يتكلم العربية في الأقطار الأخرى، يتقاربون في حديثهم مع المتكلمين بالسريانية في أنهم كثيراً مايسكنون المتحركين المتواليين في الكلمة الواحدة مثلاً:

صَرْفِتني، سَحْرَتنا، قَصْبه، خَشْبه، أَمْوِى، حَموِى

صَرَفتني، سَحَرتنا، قَصَبه، خَشَبه، أَمَوى، حَمَوِى

وهذا الأمر لانجده مثلاً في عربية المصريين، أي إسكان المتحرك، ذلك لأن المصريين لم يكونوا قبلاً يتكلمون باللغة السريانية.

وقد يكون من الآثار السريانية الباقية إلى يومنا هذا في لسان العامة بسورية قلب الميم إلى نون في ضمير المخاطبين وضمير الغائبين، مثل أبوكن وبيتهن بدل أبوكم وبيتهم، وهذه الخاصية هي من مميزات اللغة السريانية. ومن الغريب أنها لاتوجد في عربية العامة إلا في سورية الطبيعية وفي النواحي الشمالية من شبه الجزيرة العربية.

كما يتبين أنه يوجد في اللغة العامية لسورية الطبيعية، وخاصة في دمشق، ألفاظ كثيرة سريانية برمتها دون أن يكون للعربية فيها يد، يستعملها أهالي سورية في كلامهم الدارج العربي دون معرفتهم أنها سريانية بحتة. من ذلك بعض الأفعال: دَقَّر، سكَر (الباب)، دَلَف، قَشّ، طاف بمعنى طفا، خربط، دَبّق، فقع، زنق، شلح، شمط، فاش، شَطح، شحط، فلش، شقل. ومن الأسماء: الشُّوْب، الطّبلة، الشرش، البَكّير، اللّقيس، الدقن بمعنى اللحية، الهبلة، القُشّ، المخل.

لقد اقتصرنا الكثير من القول في أصول وتداخل اللغة السريانية في اللغات

الأخرى، وخاصة العربية، لأن ذلك يتطلب المجلدات، وماغايتنا من كل مامر ذكره سوى التنويه إلى المكانة التاريخية العالية التي اقامتها السريانية في سورية الطبيعية وبعض الأقطار العربية والعالمية وانبثاق العربية منها.

إنها لغة لها امتدادها على مدى ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة، وتعتبر اللغة العربية ابنتها، فهي حديثة نسبياً. فعلى سبيل المثال كان استعمال اللغة العربية في سورية حصراً ولاسيما حوران المجاور لبلاد العرب هو أقدم من زمان استيلاء الإسلام عليها، لعدة أسباب، منها كثرة القبائل الأعرابية التي كانت في باديتها، ولأنه منذ حوالي زمن ظهور النصرانية قامت دولة عربية على تلك الناحية يقال لملوكها بنو غسان كانوا عمالاً لملوك الروم.

ونختم هذا الفصل بالقول إن اللغة السريانية على مدى قرون كانت لغة دولية في بلدان الشرق ومناطقه، والذي لم يقتصر استعمالها على السريان وحدهم، وإنما شمل جيرانهم أيضاً: الفرس، البيزنطيين والعرب. وقد جرت المباحثات الديبلوماسية باللغة السريانية بين إيران وبيزنطية. وفي هذه اللغة وضعت الأحكام والنصوص الإجرائية - العملية في سورية وفي بلاد مابين النهرين. كما كتبت بهذه اللغة وترجمت مختلف الكتب من شتى الأنواع والأجناس العلمية والأدبية واللاهوتية.. بدءاً من مؤلفات أرسطو ووصولاً إلى حكايات كليلة ودمنة. وعن طريق السريان بالذات تعرف الفرس والعرب على العلوم والفلسفة اليونانية، وهو عمل أثر على عقلية هذين الشعبين.

وقد مر معنا مدى قرب العربية من اللغة السريانية، إضافة إلى قربها من لغة إيران الساسانية، التي تعرضت إلى تدفق عدد ضخم من الكلمات والعبارات الآرامية منذ زمن الاخمينيين. فالكتابة السريانية أولى الكتابات السامية التي بلغت درجة رفيعة من التطور والتقدم في مجال التدوين. وهي بلاشك لغة الاستعمال الشفهي العادي وكذلك لغة الكتابة والتوثيق لمدن سورية وأريافها.

ومن المعروف أن السريان ساروا على نهج الاغريق الذين استخدموا أحرفاً خاصة للدلالة على أصوات المد (الأحرف الصوتية)، حيث أدخل السريان في كتاباتهم لبلوغ هذه الغاية علامات وإشارات خاصة ثم بدؤوا باستعمالها بشكل منتظم وراسخ.

وإذا كان منطق العصر والمدنية الحديثة هو العناية بالآثار وحفظها، فإن اللغة السريانية بحاجة هي الأخرى إلى هذه العناية.

ومع أنه هناك ثلاث قرى في سورية لازال سكانها يتكلمون السريانية مع العربية (معلولا، جبعدين، بخعا) وتكلمهم بها لايشكل في الوقت الحالي عشرين بالمئة من اللغة السريانية الفصحى، فإن علماء اللغات والتاريخ تجتذبهم دراستها، فهم يحجون باحترام إلى القرى السورية الثلاث، يجالسون أهلها ويسألونهم وينقلون الألفاظ في كراريسهم ويسجلونها.

ولكن تطور العصر وخروج أهالي هذه القرى الثلاث من عزلتهم واحتكاكهم اليومي مع وافدين جدد وللروابط الاقتصادية التي تصل هذه القرى بالمراكز العربية اللغة كدمشق وبيرود، حيث كل احتياجاتهم مفقودة لديهم وحاجتهم تدفعهم رجالاً ونساء لغشيان تلك المراكز دوما والعمل فيها في مختلف المهن سعياً وراء لقمة العيش مما يؤدي إلى غلبة العربية ونسيان السريانية.

كما أن سهولة المواصلات جعلت المسافات قريبة والمغادرة والعودة في خلال ساعات قليلة، بعد أن كانت هذه صعبة حيث لايرى أهل تلك القرى أحداً ولايراهم أحد.

أما الآن فمازالت هذه اللغة تمارس في الكنائس السريانية وماتفرع عنها، ويحفظها بعض الأفراد، خاصة في منطقة الجزيرة. إلا أن انقراض هذه اللغة ليس بمستبعد طالما قل التحدث بها، ولعدم وجود مدارس تعلمها للجيل الجديد.

إن فقدان اللغة السريانية هو كفقدان الذاكرة من حياة الإنسان، فالصراع اللغوي لايمكن أن يكون غزواً لغوياً فقط، لأن اللغات ألفاظ وعبارات، والألفاظ والعبارات تحمل الأفكار والآراء والعقائد، وهذا هو الميدان الأوسع للصراع الثقافي، لأن الأفكار والآراء والعقائد هي التي تسيّر التاريخ.

واللغة المتكاملة الثابتة النمو والقواعد ذات الأساليب المختلفة في التعبير تغلب على غيرها، واما اخملت اللغات الأخرى وجعلتها لغات محلية وأصبحت هي لغة عالمية، أو دخلت في صلب اللغات الأضعف فيها وغزتها بألفاظها وتعبيراتها وعروض شعرها وبحروف كتابتها في الكثير من الحالات، وقد انتقل قصب السبق في هذا الصراع اللغوي من أيدي السومريين والسريان ثم الاغريقيين

ثم اللاتين، فسادت كل منها لغات عصرها وفرضت ثقافة أهلها على البلاد الأخرى.

إن اللغات هي أكبر وسائل الانتشار أو الغزو الثقافي المقصودين أو غير المقصودين، بل ربما كانت هي سلاحها الأكبر. يقول د. حسين مؤنس (الألمان شعب من أوفر شعوب الأرض علماً وفناً وثقافة وتقنية، ولكنهم لم يوفقوا إلى توسيع مجال غزوهم الثقافي بسبب لغتهم، وهي ليست بقاصرة ولاعاجزة وإنما هي أعسر في التعليم من الفرنسية والانجليزية وأصعب على النطق، ومن ثم فإن الأثر الحضاري الألماني في الدنيا محدود وإن كان واسع المجال، وكذلك الأمر مع اللغة الروسية واليابانية وكلتاهما لغة علم وفن وحضارة وثقافة)[١]

ولقد توصل علماء اللغة عند تحليلهم للغات الشرقية إلى أن تراكيب اللغة والعلاقات الاجتماعية والعلاقات العامة التي تسيطر على الكائنات تنتظمها أشكال مترابطة عند أية جماعة من الناس. ويبدو أن العواطف والمواقف غير الواعية تصاغ بهذه الأشكال كما تصاغ بها أيضاً الأفكار المنطوقة للمشاركين في حضارة ما باليقين الذي يصاغ به دماغ الهندي المسطح الرأس بواسطة خشب مهده نفسه.



(١) ـ د. حسين مؤنس: الحضارة سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١ ص ٦٣ .

الثقافة السريانية

لايجد المؤرخ أمامه أشياء يستطيع دراستها خلال الكلمات المكتوبة، إلا حينما يعثر على مخلفات إنسانية، من قطعة فخار مكسرة، وعملة مسكوكة، ومخطوطة وكتاب، أو صور شخصية، واختام، أو حطام سفينة، أو خصلة شعر، إلى غير ذلك من البقايا الأثرية والأنتروبولوجية. وعلى أية حال، فإن هذه الأشياء ليست بحال هي الحوادث والوقائع نفسها. فالمخلفات الحضارية هي نتاج لوقائع قد حدثت، فإذا كانت وثائق مكتوبة فهي في الغالب نتائج الحوادث أو سجلاتها. وهذه المخلفات الأثرية والوثائق هي المواد الخام التي يمكن أن يستخلص منها التاريخ ثم يكتب.

وقد تعاقبت على المنطقة الأقوام التي خافت من حضارة الماضي فحطمت تماثيلها وأبادت مخطوطاتها ومحت آثارها، فكان أن بقيت بعض الآثار التي هي حديثة نسبياً كما سبقها من أحداث.

فمن خلال التنقيبات التي أجريت هنا وهناك في مناطق آرامية اكتشف العديد من التماثيل والرسوم للآلهة والملوك، كتمثال برحدد في دمشق، والنصب والمنحوتات التي تعود إلى العهد الآرامي والتي اكتشفت في كل من تل حلف وشمال ـ سنجرلي (تبعد عن معرة النعمان بـ ٢٨ كيلو متراً إلى الشمال) وحماه وسواها. إلا أنه لايمكن اعتبار هذا الفن فناً آراميا بحتاً، لأن طابع هذه التماثيل والمنحوتات هو نفس طابع المنحوتات التي كانت للشعوب المجاورة والسابقة لعهد الآراميين ـ كالفينيقيين والميتانيين مثلاً. وهذا يعني أن الآراميين كانوا يعشقون فن النحت، وإن لم يكن فنانون اختصاصيون استخدموا فنانين أجانب في نحت تماثيلهم وتخطيط رسومهم. وهذا مافعلوه أيضاً بالنسبة إلى فن البناء. فقد

(استعانوا بسكان البلاد الأصليين، لتحقيق مشاريعهم الهندسية ووجدوا بينهم المهندسين والفنانين والصناع والعمال. ومقابل هذا كله أعطوا لتلك البلاد لسانهم الآرامي)[1].

كما أنه من أجل معرفة أصالة الفن السرياني بالامكان الرجوع إلى المنمنمات التي تزين أشهر المخطوطات السريانية المحفوظة في المكتبات العالمية مثل مكتبة لورنزيانا في فلورنسا والمكتبة الفاتيكانية ومكتبات باريس ولندن وكمبردج وغيرها الكثير.

من ذلك مخطوطة انجيل رابولا السرياني ٣٧ منمنمة، يرقى تاريخها إلى سنة ٥٨١ ميلادية، ومن أهمها:

١ ـ صلب المسيح وقيامته

٢ ـ صعود المسيح إلى السماء.

٣ ـ حلول الروح القدس.

٤ ـ المسيح على العرش يبارك الرهبان[2].

وتعتبر هذه المنمنمات روعة من روائع الفن السرياني، الذي يمتاز ببساطته وألوانه الحارة، والتعابير الحية في أشخاصه التي إن هي إلا انعكاس صادق لقناعة الرسام وتأثره بهذا السر أو بذاك من أسرار حياة يسوع وإرادته في إعطاء الصورة كل ماتزخر به حياته الروحية المتمرسة على الحب والإيمان من حركة ونشاط. وغني عن القول أن الصورة السريانية كثيراً ما تحكي (ملحمة روحية) فتشمل فصولاً من الإنجيل أو تشير في صورة واحدة إلى عدة فصول ومقاطع من عدة أسفار من العهد الجديد، أو تجمع بين ماورد في الإنجيل والعهد القديم عن سر من أسرار حياة يسوع.

ويمكن البرهان على ذلك في صورة (صلب المسيح وقيامته) حيث تعطيك الألوان والتعابير والأشخاص كل ماورد في الإنجيل عن آلام المسيح وقيامته من فصول. وفي صورة (صعود المسيح) بوسعك أن تتأمل مجد ابن الإنسان على المركبة التي رآها حزقيال. وعلى النصف الأسفل من الصورة تجد بواكير الكنيسة

---

(١) ـ اسكندر داود: الجزيرة العربية ـ دمشق ١٩٥٤ ص ١٣١ .

(٢) ـ النشرة السريانية الكاثوليكية لابرشية حلب العدد ٤ السنة ٣١ عام ١٩٨١ ص ٤١ .

الفتية. وقد أخذ بطرس مسؤولية في رعاية الكنيسة وبدأ بولس رسالته وتعليمه، والعذراء مريم تتوسط الرسل فاتحة ذراعيها لتعطي للعالم هذه الكنيسة الفتية التي ولدت بموت المسيح وقيامته.

الجامعات السريانية هي الأولى في سورية

يمكن القول أن أول جامعتين أقيمتا في سورية كانتا في الرها، التي هي مدينة أورفا المقتطعة من سورية في النصف الأول من القرن العشرين، وكذلك مدينة نصيبين التي هي الآن تتمركز في الجانب الآخر من نقطة الحدود السورية التركية بالقرب من مدينة القامشلي.

ووفقاً لخريطة سورية الطبيعية فإن هاتين المدينتين كانتا سوريتي الأصل إلى ماقبل عشرات السنين. وفي هاتين المدينتين أقام السريان في أوج عصر ازدهارهم أول جامعتين، دون تسمية ذلك بالجامعة، لأن هذا اللقب لم يكن متداولاً آنذاك.

وقد خلدت هاتين الجامعتين في تاريخ هذه المنطقة، لأن السريان بعثوا بهما ماعجز تاريخ من سبقوهم أن يفعلوه، وهو طلبهم للعلم في أوقات كان الجهل والتجهيل هو سمة العصر.

ولقد حاكت المدارس السريانية مثيلاتها من المدارس الكنسية والرهبانيات التي عرفها الغرب اللاتيني والشرق الاغريقي ومجمل العالم السلافي، وكان السريان أقوياء بمدرستهم التي حصلوا فيها على التعلم والقراءة والكتابة ومعرفة موسوعة ذلك العصر المتمثلة بالانجيل، وأيضاً مواد التعلم الهليني.

لهذا وذاك فقد شكلت المدرسة السريانية العالية، أهمية كبرى على تفكير المنطقة، وجامعتها القديمة نصيبين ومن ثم جامعة الرها اللتين تعتبران مدماك في صرح الحضارة السريانية السورية.

وقبل التطرق إلى خصوصة هاتين الجامعتين فإننا سنلقى نظرة على تكنولوجيا التعليم السرياني في تلك المرحلة.

جرى التعليم الإبتدائي السرياني ضمن الكنائس التي كانت تدار من قبل سلك روحي مثقف. ومن المؤكد أنه وجدت سلسلة منظمة من التعليم الابتدائي لابد من اجتيازها قبل الانتقال إلى حلقة دراسية أعلى.

فقد لعبت المدرسة التي كانت المكان المخصص لتعلم القراءة والكتابة السريانية دوراً رائداً في تكوّن تقاليد راسخة لاكتساب مجموعة من المعارف الأولية، وبالنتيجة في تقرير اللغة السريانية وآدابها. ويذكرها جيداً مؤرخو القرون الوسطى وكتابها، ليس السريان منهم وحسب، وإنما اليونان أيضاً، وكان لها شهرتها كمراكز للتدريس والثقافة والتعليم.

كما ارتدت المدرسة السريانية الطابع اللاهوتي والتعليم الديني الطائفي اعتباراً من درجاتها التعليمية الأولى، إلا أن القراءة والكتابة فتحتا الطريق أمام المعارف ووسعتا آفاق الناس حيال العلوم الوضعية المختلفة.

أما المدرسة السريانية العليا (الجامعة) في ذلك الوقت، فإن ذكرها يتردد في كل السيّر التاريخية وفي بقية المعالم التراثية السريانية، لما كانت تتميز به من أهمية استثنائية خاصة، مثل أنطاكية والاسكندرية، التي استمدت معارفها الفلسفية من الماضي السحيق، ومن الفكر البشري الوثني في تحليلاته المبكرة. وقد كانت المهمة الرئيسة للمدرسة السريانية العليا تدور حول قراءة الكتاب المقدس وشرحه وتأويله، بغية تسهيل الآراء العقائدية وترسيخها، وكذلك الاتجاه الفلسفي الذي أيده السريان. وهذا ماجعلها تفتخر أيما افتخار بأكاديميتها الأصلية العريقة في نصيبين والرها، حيث أطلق على الأولى بحق لقب (أم العلماء) وأسماء تمجيدية افتخارية أخرى، ذلك أن قواعد أكاديمية نصيبين والرها وأنظمتها تعتبر من أروع معالم التعليم السرياني، وتمثل قوانينها ولوائحها أقدم نظام داخلي لجامعات القرون الوسطى، وترتدي أهمية خاصة في هذا المجال لأنها أقدم المدارس الروحية.

ويمكن القول إن تاريخ المدرسة والتعليم السرياني يسمحان فعلاً بالغوص عميقاً في عملية انتقال المعارف العلمية، والتعرف الحقيقي على طبائع الناس، الذي عاشوا في الماضي البعيد، وكانوا في عصرهم حملة مشاعل ثقافية عظيمة.

ونعود الآن لنلقي ضوءاً على أكاديميتي الرها ونصيبين.

١ ـ جامعة الرها، بضم الراء والمد، مدينة من أرض الجزيرة، متصلة بحرّان، وهي مدينة ذات عيون كثيرة، تجري فيها الأنهار، بينها وبين حرّان ستة فراسخ، وهي سهلية جبلية كثيرة البساتين، مستندة إلى الجبل، مشرفة على بساط الأرض، ممتدة إلى حرّان.

اشتهرت الرها بجامعتها اللاهوتية التي انتقلت إليها من نصيبين عام ٣٨٣ م بعد فتح الفرس لهذه المدينة. وقد أصبحت الرها عاصمة الآداب السريانية حتى القرن السابع، كما فتحها العرب عام ٦٣٩م[1].

اعتبرت الرها من (أهم مراكز اللغة السريانية)[2] بعد أن دخلتها المسيحية في أوائل القرن العشرين، وهذا ما أكسب اللغة السريانية نفوذاً كبيراً مما مهد أن ينقل إليها الكتاب المقدس، وأن يتخذها المسيحيون لغة لهم، وتصبح الوسيلة المعبرة عن الثقافة المسيحية[3].

ويمكن القول أن النجاح الذي أحرزته جامعة الرها يعود إلى النتيجة الطبيعية للعوامل التي مهدت له، وأدت إلى نتائجه، حيث اختلط اليونان بالسريان اختلاطاً كبيراً، كذلك يعود إلى انتشار ((الأديرة والمدارس التمهيدية التي اضطلعت بالنشاط العلمي الذي يتناول السريانية واليونانية، حتى ذهب ماكس فانتاجو إلى القول «إنها كانت مركزاً لمدرسة فلسفية لاهوتية»))[4].

٢ ـ جامعة نصيبين اعتبرت جامعة نصيبين أولى الجامعات السريانية التي أوصلت جامعة الرها فيما بعد إلى ماوصلت إليه من سمعة ومكانة مرموقة.

وتقع هذه المدينة في الوقت الحالي بالمواجهة القريبة لمدينة القامشلي السورية في الطرف التركي من الحدود. وكان انتشار المسيحية في هذه المدينة عام ٣٠١ فكثرت فيها الكنائس والأديرة والمدارس ويمكن تخمين زمان إنشاء هذه الجامعة عام ٣٢٥ م، إلى أن تمّ وضع نقطة النهائية لها عام ٣٦٩ . وبعدها بعشرات السنين أقيمت جامعة أخرى، ولكن لم تصل إلى مكانة الجامعة الأولى.

وإذا كان هناك من فضل في إنشاء هاتين الجامعتين فإن ذلك يعود بشكل أساسي إلى القديس مار أفرام الذي توفي عام ٣٧٥م، فهو عظيم عظماء الأساتذة، وكان غزير العلم، بليغ الكتابة، تلوح العذوبة والجودة والقداسة في قصائده.

---

(١) ـ قاموس المنجد ـ بيروت تحت اسم الرها.

(٢) ـ أحمد أمين: فجر الإسلام مطبعة الاعتماد ـ القاهرة ١٩٢٨ ص ١٥٥ .

(٣) ـ الشحات السيد زغلول: السريان والحضارة الإسلامية الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الإسكندرية ١٩٧٥ ص ٧٣ .

(٤) ـ ماكس فانتاجو: معاهد العلم عند الرومان واليونان والسريان مجلة الكتاب ـ القاهرة عدد ديسمبر ١٩٤٨ ص ٦٧٥ .

إن ذكر هاتين الجامعتين سيبقى خالداً لما قدماه إلى تلاميذهما من علم وثقافة في وقت كانت سورية بأمس الحاجة إلى من يأخذ بالعلم ويزيل الجهل والتجهيل.

الآداب السريانية

عني علماء السريان بالعلوم والآداب والطب والفلسفة والطبيعيات والرياضيات والألهيات، ولم يكتفوا بنتاج قرائحهم الخلاقة بل احتكوا بالفرس واليونان، ونقلوا إلى لغتهم أحسن مالديهم من نتائج العقول وثمار المعرفة، حتى غدوا حلقة اتصال ثقافي بين الشرق والغرب، إذ التقت في بلادهم معارف الفرس وفلسفة اليونان. والأدب العالمي هو الذي نشأ عند أمة واحدة ينسب إليها واشتركت في تكوينه والتأثر بروحه الأمم الأخرى، ومن أشهر الآداب القومية عند الساميين الأدب السرياني.

والأدب العالمي الذي نشأ عند أمة واشتركت في تكوينه والتأثر بروحه أمم أخرى فأسباب وصوله إلى هذا الحد العظيم كثيرة، وأهمها النفوذ السياسي، وامتداد سلطان الأمة صاحبته في أمم شتى، والتأثر الروحي الديني، والتفرد بالنظر العلمي، والوصول به إلى تكوين حلقة بارزة في سلسلة التفكير الإنساني العام المنحصر في الساميين والآراميين.

وأول أدب بهذا المعنى الكامل: الأدب الاغريقي منفرداً وممتزجاً بأدب الرومان. وعالميته جاءت إليه من سلطان الاغريق وانفرادهم بالحكم السياسي وبالروح الديني الوثني ثم المسيحي وقوة العلم والفن والفلسفة، وكذلك الشأن عند الرومان.

وانتقل هذا الأدب العالمي بشقيه اليوناني والروماني إلى العرب عن طريق السريانية والسريان في الوقت الذي انتقل فيه الحكم العام من الآريين إلى العرب الساميين[١].

---

(١) ـ سمير عبده: مكانة الأدب العربي في الآداب العالمية، المجلة البطريركية ـ دمشق العدد الأول آب ١٩٦٢ ص ٣٢ و ٣٣ .

أما ماوصل إلينا من هذا العصر فيشهد على أن السريانية كانت لغة مهذبة تزدان بأدب رفيع من نثر ونظم، ولم يطرأ عليها أي تبديل منذ استقرارها، ذلك أن ماورد في التوراة ومابقي من شعر الفيلسوف الآرامي (وافا) يطابق كل المطابقة لحالتها اليوم، ولاتزال على غضارتها، وإنما نسيت منها ألفاظ بعتق الزمن[1].

وفي العصر المسيحي خلف الأدب السرياني آثاراً قيمة في سائر العلوم، وامتاز بكونه أدباً مسيحياً نشأ وارتقى متأثراً بالمسيحية مديناً لها بالصيغة الدينية، لأن المصنفات التي بين أيدينا فيه يكاد مؤلفوها يكونون بلا استثناء من رؤساء الدين ومن علماء اللاهوت الذين تخرجوا في مدارس الأديرة.

ويرجع استخدام اللغة السريانية كلغة عالمية إلى الوضع الجغرافي للسريان المتوسط بين بيزنطة وفارس. وتجلت أهمية السريان التي لاتعوّض في علاقات هاتين الإمبراطوريتين مع القبائل العربية في الجزيرة العربية، كما أن كتاباتهم ولغتهم تغلغلت في مناطق آسيا الوسطى وفي آسيا المركزية، لدرجة أن المترجمين السريان والمبعوثين والمبشرين سيطروا على جزء كبير من آسيا وسواحل البحرين: الأحمر والأبيض المتوسط. ولم ينحصر هذا الدور الهام باللغة السريانية، وإنما تعداها إلى الكتابات السريانية والأدب السرياني التي لعبت دوراً رائداً في تطور ثقافة الشرق. ولقد عقدت مناظرات المبشرين السريان في بلاط ملوك الفرس، وتجادلوا بحضور ملوك الحيرة، واختلفوا في مساجلاتهم في حَمير، وتمكنوا من الحصول على موقع راسخ في القسطنطينية، وفي بلاد النوبة والحبشة.

ومن المعترف به منذ زمن طويل أن اللغة السريانية شكلت الحلقة الرابطة التي سمحت للشرقين الأدنى والأوسط بامتلاك منجزات العالم اليوناني، بحيث أن هذا العلم استطاع أن يبلغ في مرحلة لاحقة تطوراً إبداعياً جديداً على أرضية عربية وفارسية.

وبما أن مهد السريانية وموطن مجدها وازدهارها كانت منطقة بلاد مابين النهرين التي صارت الآرامية فيها لقرون طويلة لغة المراسلات والوثائق والعقود

---

(١) ـ الأب برصوم يوسف أيوب: تراثنا الفكري في الأدب السرياني المجلة البطريركية ـ دمشق العدد الثاني أيلول ١٩٦٢ ص ٧٦ .

القانونية منذ عهد الاخمينيين في كل من الرها ونصيبين وآمد، وقنشرين، ثم اكتسبت هذه اللغة تدريجياً صفات نوعية جديدة فتحولت إلى اللغة السريانية المتطورة، التي أصبح بإمكانها التعبير عن أية مفاهيم ومصطلحات. سواء أكانت فلسفية أم علمية، أم دينية وعقائدية. ولقد لعب انتشار المسيحية دوراً كبيراً في هذا المجال فازدهر الأدب السرياني في الجزيرة الفراتية، وبلاد مابين النهرين التي أمدت البشرية بروائع أدبية قديمة سارت على نهجها الآداب في سورية ممثلة بمركزها الثقافي الشهير ـ أنطاكية. فالتعاليم المستقلة الأصيلة والعميقة التي وجدت في هذه المناطق، تعكس أقدم التقاليد التي تمتد جذورها إلى الوثنية، ولازالت متداولة إلى الآن، لدى الصابئة مثلاً(١).

وكان لهذه التآليف والتصانيف السريانية دوراً كبيراً في تاريخ العلوم، أكثر مما يكتب عنها في أغلب الأحوال. ولم تكن اللغة السريانية لغة الدبلوماسية والتجارة في منطقة الشرق الأدنى حتى القرن التاسع للميلاد وحسب، وإنما كانت لغة تلك المؤلفات العلمية التي استفاد العرب منها فائدة مباشرة، فطوروها وارتقوا بها إلى المستويات الرفيعة المعروفة للعالم كله. وكما كان السريان في عهد الحكم الساساني، من القرن الرابع إلى القرن السابع للميلاد، كانوا كذلك في العهد العباسي أيضاً، من القرن الثامن وحتى القرن الثالث عشر للميلاد، معلمين، أطباء، فلكيين، مترجمين، مُزينين، وتراجمة في قصور الحكام والخلفاء. واستطاع السريان استيعاب دائرة المعارف الهلينية قبل مرحلة نشوء الدولة العربية الإسلامية، حيث تمت ترجمة كثير من المؤلفات اليونانية إلى اللغة السريانية.

لقد عكس الأدب السرياني المتكون في القرون الأولى لما بعد ظهور المسيحية تنامي الأسس الفلسفية، المبثوثة في الماضي القديم من جهة، وعناصر الفلسفة اليونانية، القديمة من جهة أخرى، كما تتجلى فيه الآراء والأفكار الأكثر حداثة في تلك الفلسفة، ونعني بها العناصر الهلنستية تحديداً. وإذا كانت الفلسفة العلمية ـ التربوية، والفلسفة الغنوصية وأدب الشرح والتأويل ثمار الحكمة الهلنستية، فإن دراسة المنطق الصوري وتحليل النصوص، وتفسير التراكيب الذهنية جاءت على أساس فلسفة أرسطو، مع أن الفلسفة الأرسطية استوعبت في ضوء

(١) ـ نينا بيغوليفسكايا: ثقافة السريان في القرون الوسطى مرجع سابق ص ٥٤ .

الأفلاطونية الجديدة التي أغنتها وأثرتها باستمرار، أفكار الفيلسوف اليوناني أفلاطون[1].

أثر التراجمة السريان

لاشك أن السريان برز دورهم الكبير في الترجمة التي قاموا بها من اليونانية إلى السريانية والعربية منذ ماقبل الإسلام، حيث بدأوا في أواسط المئة الخامسة - لأول مرة - بتعلم الفلسفة المشائية وأخذوا يعلمون اللغة اليونانية في جامعة الرها إلى جانب اللغة السريانية واللاهوت والكتاب المقدس.

ومع أن السواد الأعظم من أبناء كنيسة سورية كان سريانياً جنساً ولغة، فقد برع كثيرون من بطاركتها وأساقفتها وكبار أئمتها باللغة اليونانية، لغة الدولة والأدب، وتأدبوا بآدابها، وصنفوا بها مصنفاتهم طيلة القرون الأربعة الأولى للمسيحية، كالبطريركيين اغناطيوس النوراني ١٠٧ + وثاوفيلس الأنطاكي ١٨٢ + وغيرهم الكثير الذين كتبوا باليونانية وهم يعرفون السريانية أيضاً.

ويتجلى دور السريان في ميدان الترجمة من خلال العرض التالي:

لم يكن العرب يملكون في الجاهلية إلا معارف محدودة دلتهم عليها تجاربهم الحياتية، مما أوقعهم في ذلك الحين إلى مواجهة حضارية قاسية، حتى إذا جاء الإسلام وانتصر في صراعه ضد الوثنية والقبلية، وأقام العرب المسلمون دولة وطيدة الأركان وأنجزوا الفتوح الواسعة، فقد وجدوا أنفسهم في صراع حضاري مع الأمم التي كان لها سبق عليهم في مضمار التقدم والتمدن كالروم والفرس والهند، فكان عليهم إدراك مابلغته تلك الأمم ومتابعة الخُطا بعدها، وقد تم لهم ذلك بنجاح تام.

كانت الأرضية الفكرية التي سادت في هذه المنطقة أرضية خصبة معمقة بالثقافة، حيث شهد وادي النيل وأرض الرافدين وبلاد كنعان وآرام وسواحل الشام.. فينيقية، وجميع ساكنيها من الساميين العرب، بزوغ المعرفة ثم تراكمها مع الزمن من خلال ألوف السنين. وبعدئذ انتقل المشعل إلى بلاد الاغريق الذي أغنوا

---

(١) - نينا بيغوليفسكايا: ثقافة السريان في القرون الوسطى مرجع سابق ص ٥٩ .

ماجمعوه واكتسبوه بالمنطق وحسن النظر وحكم العقل وسلامة الملاحظة والاستنتاج، فكانت كتبهم ومؤلفاتهم هي حصيلة ذلك.

وفي الوقت الذي نفذت فيها علوم الاغريق إلى الدولتين، البيزنطية: دولة الروم، والساسانية: دولة الفرس، اللتين تسرب إليهما الوهن، فقد انتقلت شرقاً وغرباً.. إلى الإسكندرية من جهة الغرب، ولم تكن أحوالها في ذلك الوقت تؤهلها لاحتضان شعلة الفلسفة والعلم، وإلى الرها ونصيبين من جهة الشرق، حيث كان يقيم السريان وهم الآراميون المتنصرون، أقرب الأقوام إلى العرب وأبناء عمومتهم.

وكان لاستقدام الخليفة المنصور لجورجيس بن جبرائيل بن يختيشوع إلى بغداد عام ٧٦٧ وكان رئيساً للأطباء في مدرسة جنديسابور ليكون طبيبه الخاص حلقة الوصل القوية بين مجمع العلوم آنذاك وبين بغداد، عاصمة الدولة العربية الإسلامية ونقطة البداية في عمل الترجمة والنقل العلمي إلى العربية على نطاق واسع بتشجيع الدولة ورعايتها، ذلك أن العرب لم يفكروا البتة في أن يقرؤوا كتب الأقدمين، بلغة الاغيار: لغة اليونان أو الفرس أو الهند أو حتى باللغة السريانية، شقيقة العربية، بل كان خيارهم مطلقاً في أن تنتقل الفلسفة والمعارف جميعها إلى لغة الضاد، لغتهم هم، لحبهم وإيثارهم إياها وحرمتها لديهم، ولأنهم أدركوا بداهة أن الذهن يكون أكثر تقبلاً للمعرفة واستيعاباً لها إن طلبها المتعلم بلغة الأم التي ينطق بها طفلاً.

ويمكن لنا أن نعتبر أول كتاب ترجمه السريان إلى العربية في الستينات من القرن الهجري الأول بحسب ما أورده ابن القفطي «إنه في زمن مروان بن الحكم (٦٤ ـ ٦٥ هـ) نقل أول كتاب طبي إلى العربية، وهو كناش أهرن القس بن أعين، وهو طبيب عاش في الإسكندرية ووضع كتاباً طبياً باليونانية ثم نقله إلى السريانية حتى قام بنقله منها إلى العربية ماسرجويه الطبيب البصري»[١].

وفي حين بدأت الترجمات إلى العربية في أواخر القرن السابع المسيحي،

---

(١) ـ جمال الدين ابن القفطي: تاريخ الحكماء، وهو مختصر محمد بن علي الزوزني، المعروف بالمنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي، نشر على حساب أمين الخانجي ـ القاهرة ١٩٠٨ ص٥٧ .

بيد أنها لم تنشط إلا في أواخر القرن الثامن ولم تبلغ ذروتها إلا في القرن التاسع، وامتدت إلى القرنين العاشر والحادي عشر. وقد أسهم فيها الأمويون، ودفعها الخلفاء العباسيون دفعة قوية، وبخاصة المنصور (٧٧٥) والرشيد (٨٠٩) والمأمون (٨٣٣) واستوعبت مواد مختلفة... بين أدب ودين وقصص وتاريخ وعلم وفلسفة. وأصبحت بغداد وريثة الاسكندرية وأثينا، كعبة يحج إليها الباحثون والدارسون من كل اتجاه وصوب. ومن البديهي أن تكون الترجمات الأولى قد تناولت الموضوعات التي تتعلق مباشرة بالحياة العملية.

وتعتبر حركة الترجمة في الإسلام من أنشط الحركات في التاريخ وأشملها وأطولها نفساً، ساهمت فيها الدولة والأفراد على السواء، وأعدت لها العدة، من إنشاء بيت أو بيوت الحكمة يلتقي فيها المترجمون، وتحفظ فيها مترجماتهم، وأرسلت البعوث شرقاً وغرباً للبحث عن الأصول والمراجع، وقصدت الاسكندرية وبيزنطية بوجه خاص، وهما وريثتا الحضارة الرومانية - اليونانية. واستقدم المترجمون الذين يعرفون لغتين أو أكثر، وجلهم من السريان، ويعدون من أوائل المعلمين في الإسلام. ولم يلبث المسلمون أنفسهم أن انضموا إليهم، وحملوا العبء معهم، فترجم عن العبرية والسريانية، عن الفارسية والسنسكريتية. وعني بالترجمة من اليونانية إلى العربية رأساً أو بتوسط السريانية، وحولت بعض ترجمات عن اللاتينية، وكان للمترجمين منزلة خاصة لدى الخلفاء والأمراء[1].

وإذا كان قبس المعرفة لايخبو ونور العلم لاينطفئ، بل ينتقل المشعل من يد إلى يد، فقد كان العرب في الجاهلية معجبين بما لديهم من شعر ونثر - حسبك المعلقات السبع أو العشر - ثم وجدوا في القرآن الكريم أياً رائعاً وعقيدة راسخة وشريعة جامعة فاطمأنوا إليه. وحين جاء العصر العباسي واختلط العرب بالأعاجم وسكان العراق والشام ومصر، ظهرت حاجة الدولة والمجتمع والأفراد إلى علوم الطب والفلك والحساب وغيرها فمالوا إلى نقلها مما سبقهم من الأمم وجدّوا في ترجمتها إلى العربية حرصاً على معرفتها وفخراً بها.

وبما أن الحركة الدينية قد بلغت في أواخر الدولة الأموية شأواً بعيداً، فقد

---

(١) - د. ابراهيم مدكور: حنين بن اسحق المترجم مجلة المسرة - حريصا، لبنان العدد ٥٩٦ حزيران ١٩٧٤ ص٥٤٣ .

تكلم المسلمون بالجبر والاختيار وتجادلوا فيما بينهم، كما تجادلوا مع النصارى واليهود، ونشط المعتزلة. وقد احتاج المسلمون في هذا الجدال إلى المنطق اليوناني الذي كان يتسلح به غيرهم، فتعلموه كترس للدفاع عن آرائهم، وهكذا تعرفوا على فلسفة الاغريق وشجعوا على نقلها إلى العربية.

والفضل الأكبر في ذلك يعود إلى دور عبد الله المأمون بن الرشيد الذي كان فريداً في تفتحه الذهني ونشاطه العقلي، وتوقه إلى الإحاطة بثقافات عصر، في وقت كان يملك فيه القوة والسلطان والمال.

ويقول ول ديورانت (أنشأ المأمون في بغداد عام ٨٣٠ م بيت الحكمة، وهو مجمع علمي، ومرصد فلكي، ومكتبة عامة. وأنفق في إنشائه مئتي ألف دينار، وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال)[١].

وقد تولت الترجمة، بالدرجة الأولى أسر سريانية كان لها من علمها وتفانيها في عملها ماجعلها تأخذ شهرتها على مدى تطبع الحضارة العربية بالحضارة الأخرى.

وتتجلى القيمة العلمية في ترجمات السريان في معرفتهم العميقة باللغات العربية واليونانية والسريانية، وطريقتهم في النقل أقرب ماتكون إلى الطريقة العلمية، لأنهم كانوا يعيدون ترجمة الكتاب الواحد مرات عديدة، ويصححون الترجمات القديمة على نصوص يونانية مختلفة، ويقابلون بين الترجمات والمخطوطات الأصلية ذاكرين الفروق بينها.

ولنا أن نضرب مثالاً لما قام به حنين بن اسحق من أمانة في النقل مما أكسب ترجماته المصداقية العلمية، فهو قد كان حريصاً كل الحرص على أداء النص اليوناني أداء صادقاً، وأعانه على ذلك تمكنه من اليونانية والسريانية وقدرته على التعبير العربي السليم. يستمسك ماوسعه بالترجمة المباشرة، وهذا مبدأ يعتد به المترجمون المعاصرون، يحقق ويدقق، ويصحح ويراجع، ولايأنف من أن يعيد ترجمة ماساءت ترجمته.

---

(١) ـ ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الرابع الإدارة الثقافة لجامعة الدول العربية ـ القاهرة ص ١٧٧ .

وبرغم انتسابه إلى الثقافة السريانية، لم يتردد في أن يعلم قصور بعض مترجماتها القديمة، وحاول أن يتدارك نقصها عن طريق الترجمة العربية. سلم بالأخذ والعطاء بين اللغات، فإذا كانت العربية قد أخذت ما أخذت من السريانية، فإن هذه بدورها قد تغذت من أختها العربية. وبلغت به أمانة النقل وحرصه على الدقة إن بدت ترجمته أحياناً وكأنها حرفية، ولكنها، في كل الأحوال كانت واضحة وجلية.

ويمكن القول ان أسلوب حنين كان سهلاً واضحاً، وفي سبيل الوضوح لايرى غضاضة في استعمال ألفاظ وتعبيرات دارجة، وتخيّر اللفظ الملائم من مستلزمات الترجمة، لاسيما إذا أريد به أداء دلالة اصطلاحية خاصة. وقد عرف مترجمو القرن التاسع كيف يفيدون من المصطلحات العلمية التي استقرت في القرنين السابقين، وحاولوا مااستطاعوا أن يؤدوا الأجنبي بلفظ عربي، فإن عز عليهم ذلك لجأوا إلى التعريب في غير إسراف، فعربوا عن اليونانية والسريانية واستعانوا أيضاً بالفارسية، ولحنين ومدرسته شأن في استعمال طائفة من المصطلحات الفلسفية والطبية قدر لها أن تحيا إلى اليوم[١].

ولقد استطاع حنين بن اسحق بفضل تضلعه في اليونانية أن يوضح معاني كتب جالينوس ويلخصها[٢] أحسن تلخيص، ويكشف مااستغلق منها ويقدم لها[٣]. ومن ذلك مافعله في كتاب القصد إذ (نقله من اليونانية إلى العربية، وهذبه، وزاد فيه مقدمة فيما يجب على الطبيب اعتماده في الصنعة والعلاج، وتلاه بكلام جالينوس في القصد)[٤].

وغير الكتب الطبية فقد ترجم حنين بن اسحق كتاب اقليدس وكتاب بطليموس: المجسطي، أكبر كتبه الفلكية وأصلحها[٥].

---

(١) ـ د. ابراهيم مدكور: حينين بن اسحق المترجم مرجع سابق ص ٥٤٨ .

(٢) ـ صاعد بن أحمد التغلبي الأندلسي: طبقات الأمم النجف ـ العراق ١٩٦٧ ص٤١ .

(٣) ـ ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الطباء شرح وتحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ص ١٨٩ ـ بيروت ١٩٦٥ .

(٤) ـ ابن القفطي: تاريخ الحكماء مرجع سابق ص ١١٨ .

(٥) ابن خلكان: وفيات الاعيان وابناء ابناء الزمان. ٦ اجزاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٨ ص ٢٠٩

ويرى المؤرخون الثقات أن العصر الذهبي للترجمة إنما هو عصر حنين بن اسحق، ذلك أن الترجمات التي تمت قبله لم تكن دقيقة، بل وصفها حنين مراراً بأنها رديئة وسيئة، إلا أنها كانت البداية في هذا المضمار، وليس من أمر يبدأ مكتمل الشروط والأوصاف. أما حنين فقد تجاوز تلك المرحلة وبلغ بعبقريته مرحلة النضج وصار النقل على يديه وأيدي تلاميذه أكثر دقة وأوضح معنى وأجود تركيباً.

لقد ترجم حنين بن اسحق إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً، وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين، وأصلح ما ترجمه تلاميذه وهي ستة إلى السريانية ونحو من سبعين إلى العربية، وأصبح معظم الخمسين كتاباً التي كان قد ترجمها إلى السريانية سرجيس الرأسعيني وأيوب الرهاوي وسواهما من الأطباء المتقدمين.

ويذكر ابن النديم مئة واثني عشر كتاباً لجالينوس نقلها حنين وغيره من المترجمين إلى العربية، مع ملاحظة أن بعضها لايتجاوز مقالة أو اثنتين وبعضها مطول[1].

ولقد كانت المشكلة الكبرى التي واجهها النقلة السريان هي مشكلة إيجاد كلمات مناسبة للتعبير عن مفاهيم لاعهد لكتاب العربية بها. وفي ذلك يقول مصطفى الشهابي (إن المصطلحات العلمية التي أدمجت في لساننا في تلك الأيام هي آلاف مؤلفة من الألفاظ العربية ومئات من الألفاظ المعربة)، ويضيف الشهابي، وهو الرئيس الأسبق لمجمع اللغة العربية بدمشق (أن النقلة قد اتبعوا في وضع المصطلحات العلمية وسائل ناجعة أهمها:

١ ـ تحوير المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية وتضمينها المعنى العلمي الجديد.

٢ ـ اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية أو معربة للدلالة على المعنى الجديد.

٣ ـ ترجمة كلمات أعجمية بمعانيها.

٤ ـ تقريب كلمات أعجمية وعدها صحيحة.

---

(١) ابن النديم: الفهرست، مطبعة الاستقامة، القاهرة ص ٧١

وهذه القواعد هي التي ينبغي لنا اتباعها في وضع مصطلحات العلوم الحديثة[1].

ولمعرفة قيمة هذه الترجمات فإننا نرى أنها أحدثت انقلاباً فكرياً رثقافياً ولغوياً منقطع النظير في تاريخ الحضارة الإنسانية يفوق الانقلاب الذي أحدثته النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي، بل يمكن القول أنه لولا هذه الترجمات لما وصل العرب إلى ماوصلوا إليه من مكانة حضارية، ولما قدر للغرب أن يصل إلى ماوصل إليه في الوقت الراهن من نهضة ومدنية لولا أخذه من العربية ماكان العلماء السريان قد أوصلوه للعرب، حيث أمنوا الاتصال بين العالم الهليني والعالم الغربي في القرون الوسطى، لأن النصارى اللاتين قد عرفوا مفكري اليونان، أول ماعرفوهم، عن طريق العرب، وهذا ما أشرنا إليه في كتابنا: السريان.. قديماً وحديثاً[2].

ولشرح ذلك نقول إن العرب في صدر الإسلام وفي عهد الدولة الأموية لم يكونوا يعنون إلا بالعلوم القرآنية والعلوم التي تفرعت عن القرآن أو نشأت حوله، وهي علوم الفقه والكلام والحديث واللغة. أما العلوم الدخيلة، أو علوم الأوائل كما سماها الكتاب الإسلاميون، وهي الطب والهيئة والهندسة والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والموسيقى والفلسفة بفروعها المختلفة، فلم يكن لها نصيب وافر عندهم، حتى أن أكثرها كان مجهولاً لديهم. وقد كان للسريان وغيرهم النصيب الأكبر في نقل هذه العلوم إلى العربية ونشرها في العالم الإسلامي.

كما كان لهذه العلوم الدخيلة، التي عرفها العرب بفضل الترجمات، أثر عميق في جميع حقول الفكر الإسلامي، حتى في الحقل الديني، لأن احتكاك المسلمين بالثقافات والفلسفات الغربية جعلهم يعرضون على محك العقل جميع العقائد الدينية التي كانت مقبولة لديهم، في بدء أمرهم، بدون جدال أو نقاش. ومن هنا نشأت الفرق المختلفة، والفرق التي كانت نشأتها سياسية بحتة راحت

---

(١) الأمير مصطفى الشهابي: المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٦٥ ص ٢٥ و ٢٦

(٢) سمير عبده: السريان قديماً وحديثاً، صادر عن المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمان نشر دار الشروق ـ عمان ١٩٩٧ مرجع سابق.

تسعى وراء آراء جديدة تكوّن لها مذهباً فلسفياً[1].

وأخيراً يمكن القول إن السريان اشتهروا بنقلهم أمهات المصنفات الفلسفية اليونانية وتدريسها لأبنائهم، حيث نقلوا (أورغانون) أرسطو، و(ايساغوجي) برفيريوس، اللذين شغلا مكانة كبيرة في الدروس التعليمية السريانية. وقد جذبت هذه الترجمات الناجحة الواسعة، اهتمام الباحثين، الذين عنوا بالأسئلة المتعلقة بتواريخ الترجمات، وبأسماء المترجمين. والأهم من هذا وذاك بأسس الترجمات ونواحيها الفنية. وكانت مؤلفات أرسطو تقع في مركز الاهتمام، وفي قمة الصدارة بالنسبة لبرامج الإطلاع على الفلسفة القديمة، سواء من حيث دراستها وشرحها، ومن حيث تفسير مضامينها، أو من حيث وضع التعليقات على مقولاتها، أو تحليل معاني مفرداتها ومصطلحاتها لغوياً وفلسفياً. وربما يكون السريان قد تعرفوا على المنطق الأرسطي قبل المجادلات والنزاعات النسطورية، التي أثارت اهتماماً جديداً تجاه الفلسفة. كما أدت إلى إعادة كثير من الترجمات وتجديدها، وشملت أيضاً ميادين أخرى من الآداب والعلوم اليونانية. ولكن، حسب رأي بعض العلماء، فقد اقتصر اطلاع السريان في المرحلة الأولى هذه على المنطق وعلى الفلسفة التعليمية الأولية، في حين أن الأسس الأكثر عمقاً وتبحراً في فلسفة أرسطو أصبحت محور اهتمامهم اعتباراً من القرن التاسع الميلادي فقط[2].

أما الأثر الذي ينتمي إلى صف الفلسفة العملية فهو كتاب أحيقار، الذي اشتهر بأشكال ونماذج متعددة وفي مختلف اللغات، ويكفي القول للدلالة على سريانيته أنه ورد في قائمة مكتوبة بالآرامية في عداد مجموعة من لفائف البردي لمستوطنه الحضر العربية.

وهكذا فإن عمل التراجمة السريان في بدايات العصر العربي ـ الإسلامي، والزخم والدعم اللذين لقيانه، جعل من عملهم ليس النقل فحسب، بل أن فكرهم دخل إلى الذهنية العربية ـ الإسلامية من خلال هذه التراجم ومايمر بها من بصمات ناقلها.

---

(١) ـ حنا فاخوري ـ خليل الجر: قيمة الترجمات العربية وأثرها في الفكر العربي القسم الثاني مجلة المسرة ـ حريصا، لبنان العدد ٤٣٣ آذار ١٩٥٨ ص٧٣ .

(٢) ـ نينا بيغوليفسكايا: ثقافةُ السريان في القرون الوسطى مرجع سابق ص ٢٠٨ .

المكانة العلمية للسريان

إضافة إلى ماأسبغه السريان على الآداب واللغة والترجمة فإن نشاطهم العلمي في هذه المنطقة لايمكن اغفاله أو المرور عليه دون التوقف عنده. فقد قدمت المؤلفات السريانية معلومات هامة عن المصادر الأولى للكيمياء، بما في ذلك التأثيرات التي لعبها هذا العلم في بلاد مابين النهرين.

وبلغ الأطباء المسيحيون والسريان شأواً كبيراً في هذه المنطقة، حتى أن معاوية بن أبي سفيان كان قد اختار لنفسه الطبيب السرياني ابن أثّال، كما أنه كان يعتمد على الطبيب ابن الحكم الدمشقي، وهو كذلك سرياني.

وقد كثر الأطباء كما كثرت المستشفيات في العهد العباسي، وكانت شهرة الطب المسيحي المنبثق من مدرسة جنديسابور من السعة بحيث تعتقد العامة أن مسلماً لايستطيع أن يصبح طبيباً ماهراً، وهذا ماينقله إلينا الجاحظ بتهكمه المألوف(١).

ويمكن أن نذكر من الأطباء المسيحيين آل بختيشوع الذين توارثوا مهنة الطب وبرعوا فيه، فكانوا أطباء للخلفاء المنصور والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمقتدر والراضي. كما اشتهر مسيحيون آخرون في عهد الخلفاء العباسيين عملوا في الطب وكانوا منافسين لآل بختيشوع مثل عيسى بن شحلوفا، وعيسى أبو قريش الصيدلاني، وماسويه أبو يوحنا.

ولم يفت السريان دراستهم للرياضيات والهندسة، عدا الكيمياء والطب، بحيث أن المهمة العلمية في تلك المرحلة كانت على عاتقهم.

ولاتقانهم للغة اليونانية فقد كان يسيراً عليهم الوصول إلى أسرار العلوم والعمل بها قبل أن تصل إلى غيرهم. وفي ذلك يمكن القول أن التوارث العلمي لازال قائماً لمسيحيي المنطقة منذ ألف سنة.

والذي يعنينا هنا أنه منذ القرن الثامن وحتى نهاية القرن الرابع عشر، كان العلم العربي ـ على الأرجح ـ أكثر العلوم تقدماً في العالم، وقد تجاوز بكثير ماكان

---

(١) الجاحظ: البخلاء، دار الفكر، بيروت ص٨٥

في الغرب وفي الصين، في كل ميدان للبحث.. في الفلك والكيمياء والرياضيات والطب والبصريات. وهكذا كان العلماء العرب، أو بالأحرى أفراد في منطقة سورية يستخدمون اللغة العربية، مع شيء من السريانية، فيهم عرب وسريان وآخرون، واجهة التقدم العلمي، وكانت الحقائق والنظريات والأبحاث العلمية في مؤلفاتهم أكثر تقدماً منها في أي مكان في العالم، بما في ذلك الصين(١).

ولشرح ذلك نقول إنه في الوقت الذي فقد التراث العلمي اليوناني في العالم الغربي خلال القرون، بين سقوط الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس وبين الحركة العظمى للترجمة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، استحوذ السريان ـ العرب على هذا التراث منذ القرن الثامن.

ويعود هذا الأمر بسبب جهد خارق للترجمة، حيث ترجمت المؤلفات اليونانية الكبرى، وكذلك مؤلفات الحضارات الأخرى إلى اللغة العربية. وبينما كان نقل علوم الأوائل إلى الحضارة العربية الإسلامية انتقائياً، فإنها كانت تمثل عامة الفكر الفلسفي والعلمي اليوناني ككل(٢)، وفي كل ذلك كان الإسهام الأكبر في ذلك يعود إلى السريان.

وأخذت حدود السريان البارزة بالانحسار لما تم التحول إلى الإسلام عبر القرون (ذلك أنه لعدة قرون كانت نسبة الرعايا المسلمين في الدولة الإسلامية في مناطق كثيرة أقل من الأغلبية، ثم ضعفت البنيات غير الإسلامية منذ القرن العاشر، حيث تحول الكثيرون إلى الإسلام، ومن ثم فإن القرن العاشر يشكل نقطة التحول، ومع هذه الموجة من التحول إلى الإسلام فإن نسبة المفكرين الأحرار الذين يخشون آثار العلوم الغربية قد تدهورت، وكان لذلك آثار سلبية على مسيرة العلم الطبيعي والحياة الفكرية بوجه عام)(٣).

تلك كانت بعض الملامح للثقافة السريانية التي وجدت في سورية الطبيعية عبر السنين والقرون، وهي ملامح تشرف حاملها، لأنها شموع أضاءت عالم المعرفة البشرية.

---

(1) G. Sarton: Introduction to the History of Science 3 Vol. in 5 parts. Baltimore, and Williams and Wilkins 1927 p 48.

(2) F.E.Peters: Aristotir the Arabs, New York University Press 1968.

(٣) ـ توبي أ.هاف: فجر العلم الحديث الجزء الأول ترجمة د. أحمد محمود صبحي سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢١٩ ص ١٢٠ .

الخاتمة

أثبتت التحقيقات العلمية بما لايقبل الجدل اختلاط الأقوام الرئيسة التي انتشرت في سورية الطبيعية كلها أي الكنعانية ـ الفينيقية، والآرامية، والحثيين، وامتزاجها واندماجها بعضها ببعض حتى نشأت منها شخصية واحدة جديدة واضحة هي الشخصية السورية[١].

وترجع أرومة السريان بشكل بيّن وواضح إلى نشوء الآراميين، أي قبل ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة، وهذا التاريخ يستدل عليه من امتداد اللغة الآرامية ـ السريانية كل هذه السنين. ومع أن هذا التاريخ يعد حديث نسبياً في تاريخ المنطقة ولكن الدلالة العلمية له موجودة في استمرارية اللغة طوال هذه السنين.

ومن خلال هذا الشعب والشعوب الأخرى التي تواجدت أو قدمت إلى المنطقة تم تشكيل وإيجاد شعب تكلم بالعربية، واعتنق المسيحية والإسلام وأقيمت له دويلات وممالك، وانتشرت الحضارة التي وسمت هذه المنطقة، وقاومت الغزاة، فأبقت على خصوصيتها.

وبقي هذا الاستمرار الممتد عبر ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة، بيّنا من خلال الشعب السرياني الذي لازال موجوداً كطائفة عبر واحد بالمئة من سكان سورية الحاليين، ومن خلال قرى ثلاث تضم اثنتين منها سكان مسلمون وثالثتها خليط من المسلمين والمسيحيين يتكلمون السريانية والعربية.

إن اسم سورية يعني بالأجنبية السريان، وهم سكان سورية الأصليون، الذين امتد منهم كل سريان العالم، عدا من هم في الهند، حيث هؤلاء أصبحوا

---

(٣) ـ عبد الله قبرصي: نحن ولبنان مطابع لبنان ـ بيروت ١٩٥٤ ص ٨٢ .

سرياناً بحكم التبشير السوري.

وإذا كان هناك مايشير إلى أصل سوري خالص لفئة من الناس فهم السريان الأرثوذكس الذين حافظوا على سوريتهم وسريانتهم، دون دخول أي عنصر غريب بهم، فهم متميزو الشخصية.

ومع أن الكثير من السريان قد انضموا إلى الإسلام أو إلى طوائف مسيحية أخرى، فإن سمة السرياني بقيت جديرة بالتقدير والاحترام من بقية الناس المتواجدين في المنطقة. وإذا كان توجه هؤلاء السريان عروبياً خالصاً، فقد شعروا أن العروبة والعربية هي وطنهم الكبير ولغتهم الوليدة، فأعطوا للعروبة والإسلام من علمهم وثقافتهم ومحبتهم مايجعلنا نقول إنه ندرت أن وجدت صلة رحم بين الشعوب، كما هي مابين السريان والعرب المسلمين.

ولقد حاول السريان من خلال تاريخهم الممتد عبر ألف سنة المنصرمة، شأنهم شأن المسيحيين، وفي خضم الغزوات والحكم الأجنبي، وفي أزمان لم تتح لهم فيها الحرية للإبداع والخلق أن يتكيفوا مع مختلف من حكموهم، مبرهنين على أنهم عنصراً مسالماً تواقاً إلى الخير والبنيان، من خلال شعورهم بأصالتهم في هذه البلاد، فكان من شأن بُعدهم عن السلطة أن نهلوا من العلم والثقافة برصيد كبير ضمن جماعات أعادت لمفاهيم القوة والبطش والاستغلال جل تفكيرها، فكانت هذه تصل إلى السلطة ومن ثم تتقهقر حتى أنها أبيدت في أحيان كثيرة، وبقي، من ضمن من بقي من المسيحيين حافظين على الثقافة والتاريخ الممتد لأكثر من ستة آلاف سنة، فكانوا ـ هم بحكم تاريخهم الممتد ـ المنقبين عن حضارة سورية وامتدادها التاريخي، كما كانوا هم من أشعلوا مشاعل القومية العربية منذ القرن التاسع عشر، وأيضاً هم من حافظوا على اللغة العربية وعملوا على النهوض بها، وفي الأوقات التي أتيح لهم بها أن يعبروا عن أفكارهم استطاعوا أن يوقدوا الفكر العربي، من خلال الصحف والمجلات والكتب التي انتشرت في المئة عام الأخيرة، فكان لهم السبق في النهوض العربي وفي بعث التاريخ الحضاري للمنطقة.

ولقد تجلت فاعلية المسيحيين أساساً في إطار الإمبراطورية العثمانية، في الميادين الاجتماعية التي سمح لهم بأن يوجدوا فيها، وحيث لم يكن لنشاطهم أن

يصطدم بمقاومة المسلمين ومعارضتهم، وكانت المجالات التقليدية لأنشطة المسيحيين تتمثل في الأعمال الحرفية والزراعة والتجارة والطب والمال، كما تمكنوا من الوصول إلى وظائف وأعمال إدارية مهمة في بعض المناطق(١).

أما موقع السريان في كل ذلك، فقد كان يتجلى في أن المفكر العلمي السرياني كان في المراحل المبكرة من العصر الوسيط يقع في حالة تبعية تعادل المستوى الخاص الذي احتله السريان في الاقتصاد العالمي. وفي المرحلة التي حلت الاقطاعية فيها محل العبودة، ضمت الطبقة المسيطرة بأيديها الأراضي المزروعة، المستثمرة، ورأس المال التجاري الضخم. أما في المدن فقد جرت تدريجياً عملية استبدال العبيد، المستخدمين والمشتغلين بالأعمال الحرفية بالصناع الأحرار، الموحدين في ورش حرفية ـ صناعية. ومما يشهد على التطور الهائل للحرف والورش الصناعية، ان ضرائب الممتلكات، التي جبيت من الرها وحدها في نهاية القرن الخامس للميلاد بلغت مئة وأربعين رطلاً من الذهب.

لقد رتب السريان، حتى النصف الأول من القرن السابع الميلادي، تجارة واسعة مع الغرب الذي نقلوا إليه، ليس البضائع الإيرانية والآسيوية وحسب، وإنما البضائع والمنتجات التي كانت تصنع في سورية وفي بلاد مابين النهرين. وبدءاً من القرن السادس للميلاد بدأ تحرك السريان باتجاه الأسواق الشرقية، أما في أوائل القرن الثامن للميلاد فقد احتلوا هناك مكانة متقدمة وأساسية تشهد عليها النماذج الفنية والمطرزات العمرانية والتجهيزية في (صيان فو) السريانية الصينية.

وكانت الصناعة الحرفية تتطلب مهارات فنية، كونت تلك التقاليد التي طبقت ضمن الورش. فلقد نقلت المعارف الحرفية التقليدية للصباغين، وصانعي اللباد، والنساجين، وصائغي الذهب والمجوهرات، والمختصين بصناعة السيوف والأسلحة غير النارية، أي السلاح الأبيض، بشكل شفوي، من المعلم إلى صبيه وصانعه، ومن الأب إلى ابنه، حيث كانت الحرفة تورث في أغلب الأحيان. ولكن هذه المعارف التقنية والمعلومات المهنية ـ الحرفية واستنساخها، ومن ثم أفردت لها مكانة غير قليلة في التآليف الكيميائية المختلفة. فمن من الحرفيين لم

---

(١) ـ اليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية ترجمة د. خلف محمد الجراد سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢١٥ ص ١١١ .

يكن محتاجاً لمعرفة صناعة الأقمشة وتزيينها باللون الأسود أو الأصفر؟ وكانت لوسائل تلوين الزجاج وتزيينه أهمية كبيرة أيضاً. وأخيراً، فإن إنتاج الصناعات اليدوية المعدنية كان يتطلب معلومات كافية عن التعدين والصهر والسبك وهو ماجعل أغلبية الحرفيين يتاجرون بمنتجاتهم مباشرة[1].

وفي كل ذلك كان ولاء السرياني لوطنه سورية ولاء عفوي وجداني ينبثق من أعماق النفس مندفعاً بحرارة المحبة للأرض التي أنبتته وضمت رفات أجداده، وبالحياة الواحدة التي تجمعه مع إخوانه تحت جناحها وبالمصير الواحد الذي قررته طبيعة البيئة الواحدة وبالمصالح الأساسية التي تلفه مع أبناء وطنه بإطارها الحميم.

إن حضارة السريان هي ثمرة مجهودهم الذين قاموا به لتحسين ظروف حياتهم على وجه الأرض مادياً أو معنوياً. وعلى ذلك يمكن أن تقاس الحضارة في مدى ذلك التحسن المادي والمعنوي.

والتحسن المعنوي مقدم على التحسن المادي لأن الغاية القصوى للتحسين هي شعور الإنسان بالأمان والاطمئنان والكفاية وقيام مجتمعه على التفاهم والتعاون والمحبة، بدلاً من قيامه على التحايل والأنانية والقانون الذي تنفذه قوة غاشمة.

والأمان يشمل الأمن على النفس والمال والأهل والوطن وكل مايهم - ومن يهم - الفرد أن يكون في أمان. وأما الإطمئنان فهو شعور داخلي بالبعد عن الأخطار والآلام، واطمئنان الإنسان على رزقه ومصدر هذا الرزق وعلى حياته العائلية والقومية. وأما الكفاية فهي شعور الإنسان بأن لديه مايكفيه مما يحتاج إليه أو يطمح إليه أياً كان هذا الذي يكفيه، وهي تشمل الماديات كما تشمل المعنويات، فالبيت الذي يتصور الفلاح أنه كاف له مشتمل على كل مايحتاج إليه غير البيت الذي يتصور ساكن المدينة أنه كاف له مشتمل على كل مايحتاج إليه.

ولنا أن نتصور الكفاية في المعنويات، كالأمان والإطمئنان والتفاهم والتعاون والمحبة، فمن الممكن مثلاً أن يتصور كل إنسان مقدار الأمان الذي يطلبه، ولازيادة بعد ذلك في الأمن، سواء في واقع الأشياء أو التصور، وكذلك الحال بالنسبة

(١) - نينا بيغوليفسكايا: ثقافة السريان في القرون الوسطى مرجع سابق ص ٢٤٦ .

للإطمئنان والتفاهم بين الناس والتعاون والمحبة. أما بالنسبة للماديات فلا حدود للكفاية للمطامح فيها، والفيصل هنا عل العقل الراجح الذي يستطيع كبح الطموح المادي وإيقاف الإنسان عند الحد المقبول.

والمجتمع السرياني كان مجتمعاً بسيطاً من ناحية مستواه المادي، أي أنه لم يندفع، أو لم تدفعه الظروف، في طريق الرقي المادي الذي لانهاية له، بل نظم نفسه على نحو يتفق مع بيئته فقنع بما فيه الكفاية من الطعام والشراب والأثاث وماعون البيت وأدوات الحياة. ولعل ذلك أعطاه الأمان والاطمئنان والكفاية والتفاهم والتعاون والمحبة في تحقيق مطالبه.

وهذا المجتمع البسيط كان أكثر تحضراً من البيزنطي الذي عاش في القسطنطينية والإيراني الذي عاش في المدائن أو طيشفون في نفس العصر، أو الروماني الذي عاش في روما في عصر القوة الرومانية في القرنين الأول والثاني للميلاد. وهذا ماجعل من الفرد السرياني حراً مكتمل الشخصية، شاعراً بقدر نفسه، لايخضع لسلطة تقهره وتعدو على شخصيته أو تحطمها وتستخدمه لمصالحها أو تسخره لحاجاتها. في حين كان معاصره الذي عاش في الأماكن التي ذكرناها، يعيش تحت سيطرة أباطرة مستبدين لاقيمة للإنسان في نظرهم ولامعنى للعدالة عندهم.

ومادرسناه من خلال الصفحات الماضية ـ لايمكن اعتباره دراسة التاريخ للعبرة، لأن الاعتبار بالتجارب الماضية والانتفاع بها في التجارب الحاضرة لايصح إلا إذا تشابهت الحالات تشابهاً تاماً، ولايعرف التاريخ حالة تتكرر بكل ظروفها أبداً، ومن هنا فإن قولنا إننا نقرأ أخبار الماضي للاتعاظ بما جرى لهم وتعرف الحسن فنتبعه والقبيح فنتحاشاه عبارة لامعنى لها، لأن الحسن في حينه قد لايكون حسناً في أي ظرف آخر، وكذلك القبيح لايمكن أن يكون قبيحاً دائماً، لأن الأحوال تتغير ووجهات النظر تتبدل، وماكان قبيحاً بالأمس يمكن أن يكون غير قبيح في القريب العاجل أو البعيد.

وكل أمة تشعر بشخصيتها تميل إلى القيام بتجاربها بنفسها دون أن تتبع الأخريات، بالضبط، كما أن كل إنسان في نموه وتحسسه طريقه في الحياة، يريد أن يجرب لنفسه، ولايحب أن يسير في أعقاب آخرين، ومن هنا كانت المواعظ

أثقل شيء على قلوب الناس، وقلما يصبر على سماعها أحد.

ونود أن نختم القول إننا في كتابنا هذا حاولنا أن ندرس التاريخ بما يخص (السوريون والحضارة السريانية) حتى نخرج من دوامة الاتعاظ ونعرف ماضينا ومامر بنا من التجارب وكيف وصلنا إلى مانحن فيه، فتزداد ثقافتنا بهذا العلم غنى، وتتسع آفاق فكرنا وإحساسنا، ويزداد الفكر خصوبة وعمقاً والإحساس شفافية. وعندما ندرس تاريخ أمتنا تزداد معرفتنا بها وبتجاربها، فتتثقف عقولنا وتطرب أفئدتنا وتتذوق شيئاً من الجمال، ويزداد إحساسنا بأخوة البشر والعلم وبما يعود علينا وعلى غيرنا من الخير.

وإذا كان (هيرودوت) سمي بأبي التاريخ، فإن كتابته التاريخية مع ذلك، حافلة بالقصص والمبالغات والشعر، ولكنه اتجه إلى تحديد بعض الأحداث، وأتانا فيما روى بصفحات ناصعة من التاريخ الصحيح وإن كانت قليلة. وبعد هيرودوت بدأ التاريخ يظهر كضرب مستقل من ضروب المعرفة له شخصيته ووظيفته وطبيعته، اما (توكيديد) فإننا نشعر معه أنه مؤرخ صحيح يشعر أن مهمته هي رواية الأحداث الماضية ونقدها، وهذا مانأمل أن نكون قد وصلنا إليه فيما سبق من الصفحات.



المراجع باللغة العربية

١ ـ ابن أبي اصيبعه: عيون الأبناء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥ .

٢ ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٦ أجزاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٤٨ .

٣ ـ ابن النديم: الفهرست، مطبعة الاستقامة ـ القاهرة.

٤ ـ ابن القفطي، جمال الدين: تاريخ الحكماء، وهو مختصر محمد بن علي الزوزني المعروف بالمنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي، نشر على حساب أمين الخانجي ـ القاهرة ١٩٠٨ .

٥ ـ أبو عساف، د. علي: دمشق في العصر الآرامي، من كتاب: دمشق أقدم مدينة في التاريخ ـ دمشق ١٩٩١ .

٦ ـ أبونا، الأب البير: تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، ٣ أجزاء دار المشرق ـ بيروت ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ .

٧ ـ الابراشي، محمد عطية: الآداب السامية ـ القاهرة ١٩٤٩ .

٨ ـ الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني ٣٢ جزء بيروت ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ .

٩ ـ الأندلسي، صاعد بن أحمد التغلبي: طبقات الأمم، النجف ـ العراق ١٩٦٧ .

١٠ ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البخلاء، دار الفكر ـ بيروت.

١١ ـ الخازن، الشيخ نسيب وهيبة: أوغاريت، دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦١ .

١٢ ـ الخازن، الشيخ نسيب وهيبة: من الساميين إلى العرب، دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

١٣ ـ الشهابي، مصطفى: المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، مطبوعات المجمع العلمي العربي ـ دمشق ١٩٦٥ .

١٤ ـ النكدي، عارف: الموجز في الاجتماع، مكتبة الهلال ـ دمشق ١٩٢٥

١٥ ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: تاريخ اليعقوبي، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠ .

١٦ ـ برصوم، البطريرك افرام: اللؤلؤ المنثور مطبعة ابن العبري ـ دير مار افرام السرياني ـ هولندا ١٩٨٧ .

١٧ ـ حتي، فيليب: اللغات السامية والمحكية في سورية ولبنان ـ بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٩٦١ .

١٨ ـ حتي، فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ترجمة د. جورج حداد، ود. عبد الكريم

رافق، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٥٨ .
١٩ ـ خوري، منح: التاريخ الحضاري عند توينبي، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٠ .
٢٠ ـ داود، اسكندر: الجزيرة العربية ـ دمشق ١٩٥٤ .
٢١ ـ داود، يوسف: كتاب القصارى في حل ثلاث مسائل تاريخية تتعلق ببلاد الشام ومايجاورها، المطبعة الأدبية ـ بيروت ١٨٨٧ .
٢٢ ـ داود، المطران يوسف: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية طبع في دير الآباء الدومينيكيين ١٨٩٨
٢٣ ـ زريق، د. قسطنطين: في معركة الحضارة، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٤ .
٢٤ ـ زريق، د. قسطنطين:نحن والتاريخ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٣ الطبعة الثانية.
٢٥ ـ سباعي، د. مصطفى: من روائع حضارتنا، دار السلام دمشق.
٢٦ ـ سوسة، د. أحمد: العرب واليهود في التاريخ، العربي للنشر والطباعة ـ دمشق الطبعة الثامنة.
٢٧ ـ شمعون، غريغوريوس صليبا: الممالك الآرامية دراسات سريانية ـ حلب.
٢٨ ـ شيخو، لويس: علماء النصرانية في الإسلام، جونيه ـ لبنان ١٩٨٣ .
٢٩ ـ طرازي، فيليب: عصر السريان الذهبي ـ بيروت الطبعة الأولى ١٩٤٦ .
٣٠ ـ عبده، سمير: صناعة تزييف التاريخ، دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٨٩
٣١ ـ عبده، سمير: السريان، قديماً وحديثاً، المعهد الملكي للدراسات الدينية ـ عمان ١٩٩٧ .
٣٢ ـ قبرصي، عبد الله: نحن ولبنان، مطابع لبنان ـ بيروت ١٩٥٤ .
٣٣ ـ قنواتي، الأب جورج شحاته: المسيحية والحضارة العربية ـ بغداد ١٩٨٤ .
٣٤ ـ كرد علي، محمد: دمشق مدينة السحر والشعر، سلسلة اقرأ ـ القاهرة رقم ١٦ نيسان ١٩٤٤ .
٣٥ ـ محمود، زكي نجيب: أيام في أمريكا، مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة الطبعة الثانية.
٣٦ ـ مؤنس، د. حسين: الحضارة سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١ .
٣٧ ـ يعقوب الثالث البطريرك اغناطيوس: الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية ـ دمشق.
٣٨ ـ يعقوب الثالث، البطريرط اغناطيوس: دفقات الطيب دمشق

كتب مترجمة للعربية

٣٩ ـ اشفيتسر، ألبرت: فلسفة الحضارة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ القاهرة.
٤٠ ـ بيغوليفسكايا، نينا: ثقافة السريان في القرون الوسطى، ترجمة د. خلف الجراد، دار الحصاد ـ دمشق ١٩٩٠ .
٤١ ـ جورافسكي، اليكسي: الإسلام والمسيحية، ترجمة د. خلف الجراد، سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢١٥ .
٤٢ ـ دبل، هـ، ي: اللآلئ من النصوص الكنعانية، ترجمة مفيد عرنوق، منشورات مجلة فكر ـ بيروت ١٩٨٠ .

٤٣ ـ ديورانت، ول: قصة الحضارة ٤٢ جزء، الجزء الثاني من المجلد الرابع، الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ـ القاهرة.
٤٤ ـ كوستلر، آرثر: امبراطورية الخزر وميراثها، القبيلة الثالثة عشرة، ترجمة حمدي متولي مصطفى صالح، منشورات فلسطين المحتلة، بدون تحديد التاريخ والمكان.
٤٥ ـ هاف، أ. توبي: فجر العلم الحديث الجزء الأول ترجمة د. أحمد محمود صبحي، سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢١٩ .
٤٦ ـ قاموس كلداني ـ عربي، أعاد طبعه مع ملحق جديد المطران الدكتور روفائيل بيداويد، منشورات مركز بابل ـ بيروت ١٩٧٥ .
٤٧ ـ قاموس المنجد ـ بيروت.
٤٨ ـ قاموس الكتاب المقدس، نخبة من الأساتذة، مكتبة المشعل ـ بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨١ .
٤٩ ـ قاموس أودو بالسريانية ١٨٩٧ .
٥٠ ـ تاريخ الأزمان أو المدني بالسريانية ـ مطبعة الدومينكان ـ الموصل.

مجلات

١ ـ المجلة البطريركية ـ دمشق البطريرك ماراغناطيوس يعقوب الثالث: كنيسة أنطاكية سوريا العدد الأول آب ١٩٦٢ .
٢ ـ المجلة البطريركية ـ دمشق سمير عبده: مكانة الأدب العربي في الآداب العالمية العدد الأول آب ١٩٦٢ .
٣ ـ المجلة البطريركية ـ دمشق الأب برصوم يوسف أيوب: تراثنا الفكري في الأدب السرياني العدد الثاني أيلول ١٩٦٢ .
٤ ـ المجلة البطريركية ـ دمشق توما الخوري: لغة المسيح العدد الثالث عشر تشرين الثاني ١٩٦٣ .
٥ ـ مجلة المشرق ـ بيروت اسحق ارمله: القرى السريانية في مدن سورية السنة الثامنة والثلاثون ١٩٤٠ .
٦ ـ مجلة المشرق ـ بيروت المجلد الثاني.
٧ ـ مجلة التراث الشعبي العراقي ـ بغداد طه باقر حزيران ١٩٧١ .
٨ ـ مجلة النشرة ـ بيروت يوسف مريش: شرعية انتشار المسيحية العدد الخامس أيار ١٩٩٦ .
٩ ـ مجلة الكتاب ـ القاهرة ماكس فانتاجو: معاهد العلم عند الرومان واليونان والسريان القاهرة ديسمبر ١٩٤٨ .
١٠ ـ مجلة المسرة ـ حريصا، لبنان حنا فاخوري ـ خليل الحر: قيمة الترجمات العربية وأثرها في الفكر العربي القسم الثاني العدد ٤٣٣ آذار ١٩٥٨ .
١١ ـ مجلة المسرة ـ حريصا، لبنان د. ابراهيم مدكور: حنين بن اسحق المترجم العدد ٥٩٦ حزيران ١٩٧٤ .
١٢ ـ مجلة العربي ـ الكويت حسن حده العدد ٤٦٠ مارس ١٩٩٧ .
١٣ ـ مجلة المقتطف عدد سنة ١٨٩٤ .
١٤ ـ النشرة السريانية الكاثوليكية لابرشية حلب العدد ٤ السنة ٣١ عام ١٩٨١ .

باللغة الانكليزية

1 - Carr. E. H. What is History Pelican Book, London 1967.

2 - Eban, Abba; Toynbee Heresy. Knopf, New York 1955.

3 - Gottschalk, Louis: Lafayette between the American and the French Revolution. Panthem Book, New York 1956.

4 - Geyl, Pieter: From Ranke to Toynbee. Northampton, Mass 1952.

5 - Macdoughall, G: Hoaxes. New York, Hasting House.

6 - Peters, F. E: Aristotle and the Arabs, New York University Press 1968.

7 - Rescher, N: The Ampact of Arabic Philosophy on West Studies in Arabic Philosophy Academic Library, London 1960.

8 - Roberts, B. J: The Old Testament Text and Versions. Crom Helms, London 1971.

9 - Sarton, George: Introduction to the History of Science. 3 Vol. Baltimore. Williams and Wilkins 1927.

10 - Sorokin, Pitrim: Social Philosophy of an age of Erisis. Boston, Beacon Press, 1959.

11 - Spengler, Oswald: The Decline of the West. Unwin Book, London 1954.

12 - Toynbee, Arnold: A Study of History. Oxford University Press, London 1954.

13 - Wright, W: A Short History of Syriac Literature, London, Oxford University Press 1961.

14 - The New Bible Dictionary, London.



الفهرس

مقدمة	٥
تمهيد	١١
سورية مهد الحضارات	١٧
الآراميون	١٩
الآراميون السريان	٢٣
السريان والعرب المسلمون	٢٦
رموز حضارية من سورية	٣٠
مدخل إلى دراسة الحضارة السريانية	٣٣
الحضارة السريانية في ميزان توينبي	٣٦
تداخل الحضارة السريانية في الحضارة الإسلامية	٤٠
المسيحية السريانية	٤٣
سريان سورية المسيحيون	٤٨
صمود الكنيسة السريانية السورية	٤٩
الأصول التاريخية للغة السريانية	٥٥
بداية.. اللغة الآرامية	٥٦
عظمة اللغة الآرامية	٦٠
انتشار اللغة الآرامية	٦٠
الآرامية الفلسطينية ـ السريانية	٦١

توحد الآرامية بالسريانية ٦٤
الكتابة السريانية ٦٧
تداخل اللغة السريانية في العربية ٧٠
اللغة السريانية في أسماء المدن والقرى السورية ٧٢
اللهجة العامية السريانية ـ العربية ٧٤
الثقافة السريانية ٧٩
الجامعات السريانية هي الأولى في سورية ٨١
الآداب السريانية ٨٤
أثر التراجمة السريان ٨٧
المكانة العلمية للسريان ٩٥
الخاتمة ٩٧
المراجع ١٠٣
الفهرس ١٠٧



للمؤلف

في مجال التاريخ

١ ــ صناعة تزييف التاريخ دار الكتاب العربي ــ القاهرة ١٩٨٩

٢ ــ السريان قديماً وحديثاً المعهد الملكي للدراسات الدينية ــ عمان ١٩٩٧

٣ ــ حدث ذات مرة في سورية دار علاء الدين ــ دمشق ١٩٩٨
دراسة للسياسة السورية ــ العربية
في عهدي الوحدة والانفصال
١٩٥٨ ــ ١٩٦٣

ترجمة

٤ ــ المدخل إلى التاريخ الاقتصادي د. هـ. كول
دار مكتبة الحياة ــ بيروت ١٩٩٨

٥ ــ الصراع على سورية باتريك. سيل
دراسة للسياسة العربية الطبعة الأولى: دار الأنوار ــ بيروت ١٩٦٨
١٩٤٥ ــ ١٩٥٨ الطبعة الثانية: دار الكلمة ــ بيروت ١٩٨٠
من الطبعة الثالثة إلى التاسعة ١٩٨٤ ــ ١٩٩٧
دار طلاس ــ دمشق